

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
ⵓⵎⵓⵏⵓⵔ ⵎⵓⵎⵎⵉⵔⵉ ⵔⵉⵣⵓⵓⵣⵓ
ⵍⵓⵎⵎⵉⵔⵉ ⵔⵉⵣⵓⵓⵣⵓ
ⵔⵉⵣⵓⵓⵣⵓ ⵎⵓⵎⵎⵉⵔⵉ ⵔⵉⵣⵓⵓⵣⵓ

Université Mouloud MAMMERRI de TIZI-OUZOU
Faculté des Lettres et des Langues
Département : Langue et Littérature Arabes



جامعة مولود معمري - تيزي وزو
كلية آداب واللغات
قسم: اللغة العربية وآدابها

مذكرة التخرج لنيل شهادة الماستر
الميدان: اللغة والآداب العربي
الفرع: دراسات أدبية
التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

أساليب الهيمنة في رواية ذاكرة هجرتها الألوان لفضية ملهاق

إشراف الأستاذة:

أ. د. أمينة بلعلي

إعداد الطالبة:

غانية سليمان

أعضاء لجنة المناقشة

- د. فريزة رافيل، أستاذة محاضرة (أ)، جامعة مولود معمري، تيزي وزو..... رئيسة
أ. د. أمينة بلعلي، أستاذة التعليم العالي، جامعة مولود معمري، تيزي وزو..... مشرفة ومقررة
د. سعدية لكحل، أستاذة مساعدة (أ) جامعة مولود معمري، تيزي وزو..... ممتحنة

السنة الجامعية: 2024 / 2023

شكر وعرفان

إيماناً منّي بقوله عليه الصّلاة والسّلام «من لم يشكر النّاس لم يشكر الله».

أشكر الله عزّ وجلّ على إحسانه وتيسيره لي سبيل إتمام هذا العمل، وآمل أن يعود بالنّفع على كلّ من يطلع على صفحاته.

وأشكر والديّ العزيزين اللّذين بذلا الكثير في سبيل تربيتي وتعليمي حفّضها الله. وأخصّ بالشكر الأستاذة المشرفة "آمنة بلعلّى" على إرشاداتها وتوجيهاتها القيّمة التي لم تبخل بها عليّ فقد كانت نعم الموجهة.

كذلك أشكر صاحبة المدونة الكاتبة "فضيلة ملهاق" على كل ما أفادتني به من معلومات تخدم البحث.

والى كلّ من ساعدني في إنجاز هذا البحث المتواضع سواء من قريب أو بعيد ولو بدعوة أو بسمّة أو كلمة طيّبة.

إهداء:

أهدي هذا العمل المتواضع:

إلى روح جدتي الطاهرة، أعزّ انسان سرقتة مني الدّنيا_ رحمها الله
إلى من عجز لساني عن شكرها القلب الحنون_ أمّي الغالية_ أطال الله في عمرها
إلى من صنع منّي امرأة وعلمني معنى الكفاح_ أبي العزيز_ أطال الله في عمره
إلى دعامتي في الحياة إخوتي: سعيد، نبيلة
إلى من شرفنتني بإشرافها على منكرتي الدكتورة "أمّنة بلعلّى"
إلى كلّ الأهل والأصدقاء... دمتم لي سندا لا حدّ له.

مقدمة

الرواية النسوية هي رد بالكتابة على أساليب القهر والحرمان الذي عانته المرأة في المجتمعات الذكورية التي مارس فيها الرجل مختلف أساليب الهيمنة. ولقد قطعت المرأة الكاتبة أشواطاً في مجال الكتابة لكشف هذه الأساليب وفضح التحيزات التي جعلت منها كائناً ضعيفاً عبرت عنها تلك الصورة النمطية لشخصية المرأة في الرواية الجزائرية، وهو ما وجدناه منذ أن كتبت آسيا جبار بوابة الذكريات إلى فضيلة الفاروق التي عبرت عن تأثير العشرية السوداء في واقع المرأة التي كانت هدفاً للإرهاب وسطوة المجتمع بعاداته وقوانينه.

وفضيلة ملهاق من الروائيات المعاصرات اللواتي انخرطن في معاينة وضع المرأة الجزائرية وفضح الأعياب المجتمع الذكوري، فكانت هذه الرواية موضوع دراستنا "ذاكرة هجرتها الألوان" نموذجاً لوصف مختلف آليات الهيمنة التي مارسها الرجل والمجتمع وآثارها السلبية على نفسية المرأة وعلاقتها ووجودها.

ولعل هذا ما جعل الرواية تؤكد ميولنا للأدب النسوي الجزائري وسبباً في اختيار هذا الموضوع، ذلك أن الرواية تطرقت إلى قضايا إنسانية عميقة تتعلق بوضعية المرأة التي لا تكاد تخلو منها عائلة جزائرية، وحيث عرضت لنا مجموعة من النماذج النسوية اللواتي مورست عليهن أشكال متنوعة من التسلط وآليات كان القصد منها جعلها موضوع هيمنة، ومن هنا برزت إشكالية البحث التي حاولنا من خلالها الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما طبيعة الهيمنة التي ميزت هذه الرواية؟ وكيف استثمرت الروائية تخصصها القانوني لانتقاء النماذج المثيرة من النساء اللواتي جعلت منهن موضع تمثيل للظاهرة المدروسة، وما هي أهم الآليات التي اعتمدها الرجل لإذلال المرأة في الرواية؟ وما دور المؤسسات الاجتماعية كالعادات والتقاليد والدين في ترسيخ هذه الآليات؟.

وبما أن موضوع الهيمنة هو من الموضوعات المندرجة في الدراسات الثقافية استعنا ببعض المفاهيم المتداولة في النقد الثقافي، سواء كما وردت لدى أصحابها من الفلاسفة وعلماء الاجتماع كبيار بورديو (Pierre Bourdieu) وميشال فوكو (Michel Foucault)

أو من خلال بعض الإجراءات الوصفية التي ساعدتنا على استقراء المدونة واستنباط ما له علاقة بالهيمنة، إضافة إلى الاستعانة ببعض المفاهيم من مناهج أخرى كالمنهج النفسي لما له من دور مهم في الكشف عن آثار الهيمنة في نفسية الشخصيات الأنثوية المسلوقة. سنعمل وفق منهجية مضبوطة ومختلفة عما اعتدنا عليه في مسارنا الدراسي، فتجنبنا الجانب المعلوماتي المرتبط بالتنظير وفضلنا استثماره في الجانب التطبيقي أكثر. وقد اقتضى مخطّط الدراسة إلى أن يتشكّل هذا البحث من مقدّمة وفصلين ركّزنا فيهما على المدونة، وخاتمة، وفهرس الموضوعات.

فالمقدمة حاولنا فيها الإلمام بخيوط البحث وتبسيط أفكاره وعرض الموضوع وأسئلة الإشكالية.

أمّا الفصل الأول الموسوم بـ "مركزية المؤسسة الاجتماعية وإكراهاتها" فقد أدرجناه في أربعة مباحث، حيث جاء المبحث الأول "المجتمع المرأة علاقة إخضاع" قدّمناه بملخص للرواية من ثمّ حاولنا جمع بعض إكراهات كل من المجتمع والسلطة الأبوية وربطناها بموضوعات الجسد والطلاق وغيرها. وأمّا المبحث الثاني الموسوم "سطوة الأعراف والتقاليد" فبيّنا فيه الشرط الإلزامي الذي ارتبط بالعادات والتقاليد الاجتماعية وتأثيرها في حياة المرأة، والمبحث الثالث وهو "سلطة المؤسسة الدينية" فبيّنا فيها كيف يتم استغلال الدين لاستعماله في صالح الرجل، وأنهيينا الفصل بالمبحث الرابع والأخير وهو "تواطؤ مؤسسة العدالة" وذلك من خلال دراسة قضايا، أدت بها إلى اللجوء إلى القانون كالحضانة، الطلاق، والخلع، والميراث وغيرها.

ومن العام انتقلنا إلى الخاص كما ورد في الفصل الثاني الموسوم بـ "مركزية الرجل وآليات الهيمنة" وقدّمنا له بتمهيد أشرنا فيه إلى مكانة الرجل في الإسلام، ومركزيته في المجتمع وصولاً إلى حضوره الدائم في الرواية النسوية الجزائرية، من خلال الآليات التي يستعملها في إخضاع المرأة كما وردت مظاهرها في الرواية المدروسة من خلال النماذج النسوية التي جسدتها، وقسّمناه أيضاً إلى أربعة مباحث: المبحث الأول: "الهيمنة الرمزية" فتدارسنا فيه

مفهوم الهيمنة والعنف الرمزي ضمن السوسولوجيا، وقمنا بجدول جمعنا فيه الشخصيات الأنثوية المهيمن عليها من بطل روايتنا. والمبحث الثاني: "الهيمنة بالخطاب" وينقسم بدوره إلى ثلاث آليات خطابية الأولى معنونة بـ "خطاب التهديد والإكراه" وتناولنا فيه نماذج لقوة هذا الخطاب السلطوي وتأثيره على الضحية، والثانية "خطاب الإقناع بالإغراء" يعتمد على استخدام تقنيات رمزية وخطاب الإقناع من أجل الوصول إلى غايات معينة، والأخيرة "أسلوب الإغراء بالماديات" الذي جاء بناء على الوضع المادي الذي وفرته الشخصية الذكورية في الرواية من أجل الإيقاع بأكبر عدد من النساء. أما المبحث الثالث: "الهيمنة الجنسية" فجاء لفضح ميول الرجل الجنسي وتوظيفه كأداة إخضاع وهيمنة، وانتهينا في المبحث الأخير "الهيمنة بالقوة الجسدية" لعرض حالات من الاعتداءات الجسدية التي عانت منها الشخصيات الأنثوية بدافع القوة التي يمتلكها المهيمن.

وأنهينا البحث بخاتمة تطرقنا فيها إلى أهم النتائج المتوصل إليها من خلال البحث.

اعتمدنا في هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع التي نذكر منها:

- كتاب الهيمنة الذكورية "بيير بورديو" وهو مرجع رئيسي.
- المعرفة والسلطة "ميشال فوكو"، السلطة والمجتمع "عبد العزيز عزت".
- صراع الهوامش في الرواية الجزائرية المعاصرة "ليلة أجعود".

ونشير إلى تعرضنا لمجموعة من الصعوبات التي تتمثل فيما يلي: صعوبة ضبط خطة

للبحث والإلمام بكل المواضيع نظرا لتداخل آليات الهيمنة، والمرتبطة أساسا بتشابك وترابط

الأحداث في المدونة المدروسة وتنوع النماذج النسوية فيها.

وفي الأخير لا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذة المشرفة "آمنة بلعلی" على توجيهاتها

القيّمة، وإلى أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم قراءة هذا البحث وتصويبه والملاحظات التي

ستفيدنا في إعادة النظر في النقائص الواردة.

الفصل الأول: مركزية المؤسسة الاجتماعية وإكراهاتها

- المبحث الأول: المرأة المجتمع علاقة إخضاع.
- المبحث الثاني: سطوة الأعراف والتقاليد.
- المبحث الثالث: سلطة المؤسسة الدينية.
- المبحث الرابع: تواطؤ مؤسسة العدالة.

تمهيد:

المؤسسة كمفهوم مركزي تعني الكيان أو الهيكل الذي يتحكم في سلوكيات الأفراد وعلاقاتهم، كالمجتمع والمؤسسة الدينية والأعراف والتقاليد والنظام القانوني وغيرها، وهي عادة ما ترتبط بالسلطة الذكورية باعتبار أن المجتمعات عبر تاريخها ارتبطت بالرجل الذي يصنع المؤسسة ويفرض القوانين، التي غالبا ما تكون المرأة هي الضحية الأولى فيها. ويمكننا القول إن قضية المرأة خضعت لهذه المؤسسات كلها، فهي ما تزال تعاني إلى يومنا هذا من العنف والتمييز في المجتمعات الذكورية التي أعلنت من قيمة الرجل وعاملتها بدونية وهيمنت عليها باسم الأعراف والتقاليد والأحكام الشرعية والقوانين لدرجة تقييد عقلها وتفكيرها وتتميط سلوكياتها.

عملت هذه المؤسسات جميعها على تقييد المرأة داخل الفضاء الأنثوي، فأصبحت مخلوقا ضعيفا خاضعا تستسلم للرجل استسلاما مطلقا، لتبقى رهينة عنده في الوقت الذي يسعى هو إلى إثبات وجوده. كما قامت أيضا «بتهميش المرأة وسلبتها عقلا الذي يعد أهم المقومات الأساسية التي تتميز بها عن سائر المخلوقات، فهي في عرف المجتمع الذكوري ناقصة عقل ودين ومحور الشر وجندي من جنود إبليس حسب ما تصوّره كثير من النصوص الثقافية العربية¹.

ومعنى هذا أنّ هناك مؤسسات تعمل على تكريس وتعميق هذه الهيمنة «ويضرب بورديو مثلا بالعائلة والمدرسة والكنيسة والدولة والصحافة²»، حيث نجد أن هذه المعاملة التي تعرضت لها الأنثى كأم أو زوجة أو أخت أو ابنة فرضت عليها بطرق مختلفة، ومنعتها من ممارسة حياتها بشكل طبيعي، وهو ما سيتضح من خلال هذا المبحث.

¹ ينظر: جابر خضير جبر: المرأة والسلطة (قراءة في الموروث النقدي)، واسط للعلوم الإنسانية، ع19، جامعة البصرة- كلية الآداب، ص13.

² أمال علاوشيش، المرأة في المخيال الذكوري (قراءة في "الهيمنة الذكورية" لبيري بورديو)، جامعة الجزائر (2)، 2018، ص2.

المبحث الأول: المرأة المجتمع علاقة إخضاع.

تعتبر نظرة المجتمع إلى المرأة، كسهم لادغ إما أن يحييها وإما أن يميتها، كون الأسرة التي نشأت وترعرعت فيها قائمة في الأساس على السلطة البطريركية التي تميز بين الذكور والإناث، إذ تقدس الذكر وتجعل له امتيازات، وبالمقابل تحتقر الأنثى التي أصبحت فيما بعد ضحية هذا المجتمع الذي ما عاد يراها إلا رمزا للعار والرذيلة «إذ ترى المدرسة الفرنسية أن المجتمع وهيئاته سابق الوجود الفردي للكيان الذاتي للأفراد، فالفرد ليس له القدرة على أن يخلق مجتمعا، أو أن يخلق هيئة معينة فيه، وليس له القدرة بمفرده أن يتحكم في مصير المجتمع»¹. فالمجتمع هو المؤسسة التي تضم كل المؤسسات الأخرى وتحتويها، وتفرض على الأفراد قوانينا وقيما يجب السير عليها.

تتعرض الأنثى منذ ولادتها للاعتداء الذي يمارسه المجتمع عليها إذ لا يرحب بقدمها، وبالأخص في الأرياف إذ تتعرض للطلاق والاعتداء وإن تركوها على قيد الحياة تستعد لمواجهة مصيرها، حيث «يميل عليها التطبيع الاجتماعي كله بالنتيجة إلى فرض حدود عليها، وتتعلق كل الحدود بالجسد المعروف إذا على أنه مقدس وحرام والذي يجب تأصيله في الاستعدادات الجنسية»². وهذا الأمر ينطبق على رواية "فضيلة ملهاق" التي حاولت أن تنقل لنا بعض التفاصيل المتعلقة بأكثر قضية شائعة في المجتمع، ألا وهي المرأة. فهي تحكي قصص معاناة نساء مورست عليهن أساليب الهيمنة من طرف المجتمع الذكوري الظالم الذي يختزل المرأة في عذريتها وجسدها، فمنهن التي وقعت ضحية الاغتصاب والزواج بالغصب وحتى العنف الجسدي والنفسي والرمزي، فلا تكاد تخلو الرواية من هذه الأساليب ومن مواضع الخيانة والخداع من جهة الزوج، أما من جهة السلطة الأبوية فهنّ ضحايا لظروف اجتماعية قاسية وتقاليد سائدة ملزمات بالثقافة بها.

تدور أحداث هذه الرواية حول الشخصية المركزية "رحيم"، والذي خاض عدّة تجارب عاطفية وفعل الكثير لأجل أن يجمع بين عدّة نساء. كان همّه من تلك العلاقات الهروب من الوضع السياسي وضغط العمل وإشباع غريزته الذكورية. وقد استعمل في ذلك أساليب

¹ عبد العزيز عزت، السلطة في المجتمع، publisher not identified، القاهرة، 1995، ط1، ص23.

² بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر: سليمان فعفراني، مراجعة: ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، ص51.

هيمنة كثيرة منها التباهي بالمكانة المهمة التي كان يكسبها كون الهيمنة قائمة على المال، وإقناع ضحاياه بالوعود أو العكس، فمنها التي سبب لها حملا وتركها تواجه المجتمع لوحدها ومنها التي طلقها وجعلها عارا على عائلتها، كل هذه النماذج سنتطرق إليها بالمختصر من خلال صفحات بحثنا... وحيث لا تتعدى وقائع الرواية لحظة موت شخصية "الضاوية" ونقل نعشها إلى قرية "الملونة" لأجل دفنها. من هنا تأخذ ذاكرته إلى الماضي ليتذكّر كل ما عاشه خلال الواحد وسبعين سنة من عمره، من ثمّ تعرج الرواية لتنتهي حين تتوقف الذاكرة من الاسترجاع لتتبسط له صفحات من الذاكرة تحتاج لمحاة وأخرى سيحاول حلّها، معلنا توبته. نقول أنّ هذه الأحداث جمعت لتعطي لنا شهادة حيّة عن واقع المرأة الجزائرية جزاء هذا الظلم وهذه الهيمنة من قبل المؤسسة والرجل.

فشخصية "وردية" كانت تخجل من إبراز انحناءات جسمها وتحرص على إخفائها وارتداء ملابس فضفاضة، تقول الساردة: «فعندما، بدأت تظهر ملامح تبلوره، في بداية بلوغها كانت تعتبره مصدر حرج وتحرص على إنحاء ظهرها قليلا لتواري حجمه الفعلي في قعر قفصها الصدري»¹. رغم أن أمها نبهتها عدة مرات عن تجاوز هذا الفعل وأنّ ثديها علامة للنضج، إلا أنها بحكم تنشئتها تعتبر جسدها عورة، ولكن بعد زواجها زال ذلك الشعور فلم تعد تخرجها الملابس بل العكس فالأمومة والرضاعة منحها ثقة بالنفس.

ففي العلاقات الاجتماعية هناك تخويف حقيقي من العائلة، بدعوى توريطها في العار فسامية تعايشت مع فكرة أنّ أنوثتها عيب، ومنذ بلوغها منعوها من تصرفات كثيرة: كالنظر في المرأة، الاهتمام بتمشيط خصلات شعرها، مشاهدة الأفلام الأجنبية، وحتى الانعزال والشروود...²

يدل المقطعان على صراع الجسد مع الواقع وهروب الأنثى من أنوثتها التي تعتبر عيبا وعارا في المجتمع «وما ولدّ هذا الهروب والنكران للأنثوي هو التمييز بين الذكر والأنثى في المجتمع، وهذا ما ولدّ الخلل الكامن في النسق الثقافي الذي يحتوي المرأة داخل المجتمع، وهذا ما اعتبره "نصر حامد أبو زيد" بأنه نسق طائفي وعنصري. إلى جانب سبب آخر يتمثل في تلك النظرة الثنائية للجسد داخل المجتمع: فمن جهة تظهر المرأة على أنّها جسد مدنّس

¹ فضيلة ملهاق، ذاكرة هجرتها الألوان، موفر للنشر، الجزائر، 2016، ط1، ص270.

² ينظر: الرواية، ص53.

وآثم وهو جسد يتناقل بين ثنائية ضرورة الحفاظ عليه وضرورة استباحته¹ ومن جهة أخرى جسد مشتهى يمنح المتعة باعتبار عالم الأنوثة عالم مستحب ولذلك يكون قابلاً لكي يكون موضوع اغتصاب.

صاّدق المجتمع على جعل الرجل ذا مركزية وسلطة في شتى المجالات، وأنه يفرض نفسه بنفسه ولا يحتاج إلى تبرير أو موافقة في النشاطات التي يقوم بها. يقول بورديو في ذلك: «إن النظام الذكوري تتراءى فيه أموراً تستغني عن التبرير، ذلك أن الرؤية مركزية الذكورة تفرض نفسها كأنها محايدة وأنها ليست بحاجة إلى أن تعلن عن نفسها في خطب تهدف إلى شرعنتها، و النظام الاجتماعي يشغل باعتباره آلة رمزية هائلة تصبو إلى المصادقية على الهيمنة الذكورية التي يتأسس عليها، إنها التقسيم الجنسي للعمل والتوزيع الصّارم للنشاطات المقترحة لكل الجنسين»². وكان الذكر منذ خلقته عرف امتيازات لم تكن الأنثى تحلم بها أصلاً.

توارث الأجيال هذه الهيمنة الذكورية فالذكر من منظورهم يملك الدين، المستقبل، الماضي، الشرف، الكرامة، الاخلاق ويملك إحساس الغيرة على أخته أو زوجته أو أمه لذا يمنعها من إكمال مشوارها الدراسي وحتى الخروج من البيت كأنه يحمي شرفها ولكنه في الحقيقة ما هو إلا موقف طبقي سلطوي منه لا غير، ليجعلها رهينة وحبيسة في المنزل تقوم بأشغال البيت وتربية الأولاد والحيوانات.

وهو الأمر الذي انطبق على عدة شخصيات أنثوية في هذه الرواية التي تلخص مآسي النساء وتعطي صورة عما تعانيه في المجتمع جراء الهيمنة التي يمارسها المجتمع الذكوري. تتحدث الساردة في الرواية عن إكراهات المجتمع الذكوري التي تبدأ من إلزامية إنقاف الأشغال المنزلية التي يخص بها المجتمع الفتاة دون الذكر، بحجة لكي لا تتعرض الفتاة للهرج في منزل زوجها وهو شرط أساسي ليقبل الخطاب بها ورد الحوار بين والدي "ربيعة" وأخيها لحظة أخذه قرار الزواج في المقطع التالي: «- ما حاجتك لشهادتها ومستواها الثقافي؟! ستبقى في البيت تطبخ لك وتربي أولادك!؟»

¹ حامدة تقبايت، كتابة الجسد وجسد الكتابة في الخطاب الروائي النسوي الجزائري، أعمال الملتقى الوطني: PNR الرواية النسائية في الجزائر-النشأة وأسئلة الكتابة منشورات مخبر تحليل الخطاب، الجزائر، 2013، ص193.

² بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ص27.

- أراهن على أنها لا تجيد كتابة رسالة. (...)

- عجبا! أو ليس البيت الذي لا تبسط فيه (الجفنة) ليس بيت؟! أليس هذا هو دستورك يا

أبي؟!¹».

إنّضحت ضرورة تعليم الفتاة هذه الأعمال المنزلية لتمكينها مستقبلا من إدارة بيت زوجها لأنها في المجتمع الجزائري معيار الأنوثة، تكون بها نظرة المجتمع لها إيجابية، وبالنسبة للأسرة فإنها تخلق لها بيئة مريحة ومنظمة كما هو حال "الضاوية" التي منذ أن كانت طفلة ترعى الأبقار في حقول جدّها ولا تفرط في الاعتناء بها ردّا للجميل الذي قدمته لها من غذاء واستئناس. وفي زواجها أمهلها أهل الزوج فقط سبعة أيام حسب العادات والتقاليد الجزائرية وبعدها أصبحت هي المسؤولة عن أشغال البيت وإعداد الطعام،² كموظفة بتسمية زوجة. تقارن الكاتبة وحشية عائلة "ربيعة" بالهنود الذين ينتهجون طرقا غريبة وعجبية في تعذيب المرأة، تقول: «أرادوا لها مصير هندوسية تقبر مع زوجها الميت، رغم أنّ طليقها حيا ويستمتع بزواج آخر»³. فبحسب معتقدات الحضارة الهندية فمكانة المرأة دنيئة لأقصى درجة يتم التحذير منها لأنها مصدر العناء الدنيوي، ولا يسمح لها إطلاقا العيش بمفردها ودون إشراف زوجها أو أبيها أو ابنها وإن مات هؤلاء وجب أن تنتمي إلى رجل من أقارب زوجها أو تقدم كقربان لترضي الآلهة. وكذلك الرجل الصيني الذي بلغ ذروته من الهيمنة حيث مُنح له الحق في بيع زوجته وأبنائه، كما يستطيع قتلهم بإذن الرأي العام وإن مات هو طُلب منها أن تُحرق نفسها تكريما له⁴.

في الرواية يلقي الأب كل حمل الطلاق على ظهر ابنته وحدها وكأن "رحيم" معنى من هذا الخطأ، وتجلى ذلك في هذا المقطع في خطاب الأم لابنها عمّا حصل بأخته «أبوك يكاد يخنق وهو يردّها إليه بعد كل ما فعل، لكنّه يقدم مصلحة أختك التي عادت مثقلة بابنين يلتصقان بأذيالها، هذا أهون نصيب. زواجها من غيره لن يكون أفضل، إن لم يكن من شيخ يبحث عن ممرضة، سيكون من أب يحتاج لخادمة لأولاده. وفي جميع الأحوال

¹الرواية، ص 233-234.

²ينظر: الرواية، ص 30.

³الرواية، ص 263.

⁴ينظر: وليدة حدادي، الإعلام وقضايا المرأة، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، 2020، دط، ص 17.

ستحرم من ولديها.. بقاؤها مطلقة وهي في عزّ شبابها لن يكون مريحا للجميع»¹. لم تسلم المطلقة من أحد، حيث أصبحت على لسان كل من هبّ ودبّ بسبب القيل والقال عنها في قرية "الملونة" وكذلك من أفراد عائلتها فقد احتقرها أخوها المغتربان واللذان ما عادا يتذكرانها ولو بحبة حلوى، فحتى أمها تنعتها بعديمة الحظ وتؤيد موقف "رحيم" في الزواج بأخرى. ولأهل "ورديّة" الموقف ذاته من الطلاق حيث أدار لها والدها ظهره ورفض تأييد رغبتها في الطلاق.² وعوض أن يدعمها معنويا اكتفى فقط بالتركيز على الضمانات المادية التي تتعلق بنمط معيشتها من نفقة ومأوى وأويها هي وابنتها. أمّا عن الضاوية بما أنّها تطلّقت فجدها رأى أنه من العار أن تبقى مطلقة لذا سعى لتزويجها من مستخدمه "قدور". وممّا لا شكّ فيه أنّ المجتمع ما هو إلاّ «فضاء للصراع والمنافسة والهيمنة»³ يرى أنّ عالم المرأة مستقل عن الرجل، يعتبر عالمها ضيقا ومحدودا محصورا بين الزواج والانجاب، فتحتّم عليها التعايش مع وضعها وإلاّ ستصبح محل سخرية، وتعرض لأقويل تمسّ بسمعها كالعانس أو الباييرة بالعامية الجزائرية، حتى ولم يتجاوز عمرها السن القانوني، حيث غدا الزواج الهدف الأساسي في حياة الأنثى لاجتتاب كلام الناس.

وإذا لم تنجب بعد زواجها مباشرة فسينادونها بالعاقرة ويحتقرها زوجها ويصل به الأمر إلى طلاقها أو الزواج عليها، وهذا أمر مفروغ منه في المجتمع العربي الذكوري الذي يلوم المرأة ويزكي الرجل، ورغم اعتراف الجميع بالقضاء والقدر لكن يصعب تقبل فكرة أنها امرأة عاقر أو بالأحرى منبوذة المجتمع. ف"الضاوية" في الرواية عانت كثيرا في حياتها، وتحملت ذنبا لم ترتكبه، وهو عدم إنجابها إلاّ لمرة واحدة ولسوء حضها أنه توفي.

هذه الهيمنة التي تمارسها معظم الطبقات المجتمعية الذكورية، خلفت أزمات نفسية كثيرة للمرأة لأنه علميا درجة إدراكها للمشاعر أعمق من الرجل وخصوصا عندما تجد نفسها محاصرة بين زوجها وأهلها، فمنها التي تكبت مشاعرها وتستسلم وتتقبل واقعها الأليم ومنها التي تقاوم بعدما تراجع حسابتها.

¹الرواية، ص149.

²الرواية، ص273.

³تبانّي خديجة، سوسيولوجيا الجسد عند ببيير بورديو-الجسد والرياضة والهابتوس-، سلسلة الأنوار، ع1، مج13، جامعة وهران، 2023، ص7.

المبحث الثاني: سطوة الأعراف والتقاليد.

إن العادات والتقاليد جزء لا يتجزأ في المجتمع وذاكرة حية تعكس كيفية اشتغاله، حيث يرى عبد العزيز عزت¹ أنها « سلطة من سلطات المجتمع تشمل المعتقدات التي تسري بين الناس وخاصة بين العامية منهم، ويشعرون أن هذه المعتقدات ملزمة لهم وتضغط عليهم ويجدون أنفسهم مضطرين إلى الأخذ بها أحيانا كثيرة وخاصة في عهد الطفولة و الشباب»¹. فهي إذن نوع من السلطة الاجتماعية التي تؤثر على طريقة تفكير وتصرفات فئة عمرية من المجتمع، وتبقى راسخة حتى بعد موتهم. وتتعلق بفئة معينة من الناس في المجتمع يتبعون ويقلدون معتقدات وسلوكيات شعبية تعود للماضي والمتعاقبة جيلا عن جيل، حتى تصبح ملزمة ومقدسة وجب الخضوع لها. فهي إذن «مظاهر خاصة تتعلق بحياة فئة معينة من الناس في المجتمع، وهي اتفاق اجتماعي على فعل بعض المظاهر يسود بين الأفراد في محيط معين، وهذه المظاهر تميزهم عادة بطابع خاص بالنسبة للوسط الاجتماعي الذي ينتمون إليه، وتؤكد الوحدة والتضامن فيما بينهم»². إنها ثابته ينبنى عليها العقد الاجتماعي، ومن خلالها تقوى وتشتد العلاقات داخل الفرد والجماعة.

تعتبر الأعراف والتقاليد من أهم الأطر التي تقدم على تعنيف المرأة، فتربط نفسها بها وترى في تركها ذنبا لا يغتفر، بحيث تفرض عليها وضعا مثقلا بالأحكام والقيود، هذا ما أشارت إليه زينب الأعوج بوصفها المجتمع الجزائري فتقول: «مجتمع مثقل بالتقاليد البالية، يارث طويل من الظلم والفكر الإقطاعي، إنه مجتمع يمشي على كثير من جثث النساء البريئات»³.

تربط هذه المعتقدات واقع المرأة المتخلف فتأسرها، وتتأثر بها وتصبح مدمنة عليها، ومن بينها المذكورة في ثنايا الرواية كزيارة الأضرحة والعرفانين، معتقدات السحر والتابعة، خطوط اليد، بركة الأماكن (الحمام مثلا)...

¹عبدالعزیز عزت، السلطة في المجتمع، ص72.

²عبدالعزیز عزت، السلطة في المجتمع، ص84.

³ زينب الأعوج، السيمات الواقعية للتجربة الشعرية في الجزائر، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، ص50.

يكرّس المجتمع الذكوري وجوده لمراقبة المرأة وخنقها بمسميات العادات والتقاليد، إذ لا يسمح بتاتا للفتاة في المجتمع العربي بمصاحبة الذكور إن لم يكونوا من حرمها، وإن أقدمت على الخروج مع صديقها وإقامة علاقة معه سيورطها هي وعائلتها في العار، فالشرف مرآة عاكسة للحالة الاجتماعية للفتاة أو لعائلتها لا ينفع فيه الندم لتغيير الأمر، وليشفي غليل كل من العائلة والمجتمع وجب رد الثأر. وينطبق ذلك على "رحيم" في هذا المقطع:

«فكر لأول مرة في حياته بمصير "حبيبة"، ومصيره هو أيضا، لو اكتشف أهلها ما حدث بينهما ألا يكون قد أعدّها للدّبح»¹. فالدفاع عن الشرف غالبا ما يكون عن طريق القتل لمن تجرأ على المساس بشرف العائلة ولفكرة غسل العار.

أصبح فيما بعد هذا التقليد متوارثا لا زال حتّى يومنا، وهذا ما أشار إليه "حسين مناصرة" في كتابه بقوله: «وقد نجد في بعض البيئات الرّيفية المتخلّفة تقتل المرأة لأقلّ شبهة، غسلا للعار عندما تقيم علاقة (أو شبه علاقة) غير شرعية في المنظور الاجتماعي. وفي حالات كثيرة يكتشف أهلها بعد مقتلها أنّها كانت شريفة عفيفة»². فهذا إذن ليس سوى مثال بسيط عن عنف الأعراف وعن عدم الاكتراث بالروح فالمهم تطبيق العهد المتوارث جيلا عن جيل.

يرفض الأهل دخول بناتهم في علاقات سابقة مع الرجال والأسوء من ذلك رفضهم الارتباط بهم علنا، فحتى لو قرّر الخطيب الارتباط على سنة الله ورسوله وقصد أهل حبيبته، فسيعارضون ذلك لوجود علاقة سابقة بينهم، ففي نظرهم علاقة الحب والرغبة قبل الزواج جريمة لا تغنر وتكون ضحيّتها الفتاة. ورد الموقف ذاته في الرواية لإحدى الشخصيات إذ «اعتبروا اختيارها للخطيب عارا لا يمحوه إلا زواجها بغيره»³. وهذه عادة أخرى ألّفوها لمنع الفتاة وتخويفها من الارتباط في السر، لما فيه من عواقب وخيمة.

تأثرت "الضاوية" منذ أن كانت صببية بمعتقدات واتبعت تقاليد عدّة من خلال ما تصوره أحداث الرواية، نبدأ أولا بعهد الحرمان الذي قطعت على نفسها باستحالة تناولها قطعة من لحم غنمي طيلة حياتها أملا منها بأن ذلك الاعتقاد سيحفظ لها كتفيها أي إخوتها،

¹الرواية، ص123.

² حسين مناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2008، ص16.

³الرواية، ص381.

رغم أنهم رفضوا التواصل معها وحرموها حقها في الميراث، كان "رحيم" دائم الالاحاح عليها أن تترك تلك العادة وتستمتع بلذة اللحم، يقول ممزاحا إياها: «هم يزدادون ثراء وجاها، يتلذذون بالمشوي و المقلي وأنت تنطمرين* في شحم خرافاتهم!.. هاها.هاه!». فلم تأبه بكلامه، وظلت ملتزمة بالعهد الذي قطعه على نفسها، ولم تتراجع عنه حتى في زردة "سيدي الضاوي" التي تعتبر كل من يرفض ما يقدم له نكرانا لبركته، وتحاول أن تقنع نفسها بقولها: «السادات الصالحون سيتفهمون أما عفاريت رباط التابعة فلا أضمن شرهم»¹.

كما أنها تربط أي أمر فاشل في حياتها بإصابتها بالتابعة والعين، كعدم إنجابها أو استقرارها لا في بيت أحد من أزواجها ولا جوار العائلة التي حلمت بها تحت سقف واحد هي ووالديها واخوتها. سمعها "رحيم" ذات مرة تبكي بحرقة وهي تسرد حكايتها لأمه تقول: «قد تكون جدتي أخطأت في قراءة التمام التي تقطع التابعة بدل ان تقوي اكتافي هدتها»².

فقد كانت جدتها العجوز تقرأ عليها التمام لتبعد عنها تلك العين الحاسدة التي تزعم أنها لازمتها بسبب سقوط حملها المتكرر. إذ تملك طريقة علاجه هو الآخر، فتتصح به أمهات قرية "الملونة" بعدما يضعن مولودهن الجديد خوفا من فقدانه وجب عليهن إطلاق أسماء غريبة كاسم "العيفة" ليعافه الموت أو اسم يرمز للحياة "كالعياشي" أو أسماء أخرى كالمبارك، العايب، المعتوس... أما دور الأباء للسيطرة على الوضع في هذه الحالة وخوفا من فقدان صبيانهم، يثقبون أذن المولود ويلقون عليه تميمة على شكل قرط لتبعد عنه أثر التابعة.

فحين يولد يتيم الأبوين يلجا لتخييره بين أعضاء من جسم الخروف «فإذا اختار من الأطراف يحرم عليه أكلها طيلة حياته وإذا اختار قطعة من الرأس يحرم عليه أكل الرأس، وإذا ما اختارت تلك يحرم عليه أكل لحم الخروف ويظل طوال حياتهم ملاحقا بالنصائح المخيفة... يبقى الصبي تحت المخلص تحت رهبي الالتزام ووطأة رغبة التدوق، يقرن مفهومه للحياة بمضغة»³ فكل هذه المعتقدات تظل محفورة في نفسية الطفل ويتركها مستقبلا لأولاده ولأحفاده.

*تنطمر: بمعنى أنها تتبالغ كثيرا لحرصها على هذا العهد.

¹الرواية، ص251.

²الرواية، ص250.

³الرواية، ص250.

تأثرت الضاوية بهذه المعتقدات وأثرت على "رحيم" وأصبح يرافقها لزيارتهم. فدفعه الفضول ذات يوم لزياره أحد العرافين هو وأصدقائه ليفك العين التي يدرك أنها تلاحقه بسبب عدم زواجه المبكر مثل باقي معارفه وأقربائه وعدم توفقه في إيجاد فتاه أحلامه، وكذا عدم نجاح شركته الخاصة في بداياتها. وقد أصبح على يقين أن تيسير أمره وزوال النحس عنه أمر مربوط بمنطق "شيطان يقهر شيطان"، فيتذكر أن آخر مرة تودد إلى أحدهم كان قبل توبته وعقب انفصاله من "وردية" وهي نساء، لمخاوفه من سحر التفرة واللعة التي حلت به في زواجه. حيث توجه إلى مرابطة تدعى ب "حورية الجنية" والتي شاع عنها التداوي بالبخور والتمائم مقابل مبلغ معتبر من المال، ويقصدها الناس من كل الفئات والقرى، وعند شروعا في العملية بادرت قائلة: «زوجتك تحبك لكن المرأة السمراء تقف بينكما وترمي بالسكر في العتبة»¹. فاحتار "رحيم" أي من زوجاته تقصد وأية فتاة سمراء ترميه بالسكر "حبيبة" أو "سامية"، وأكملت حديثها عن هذه الأخيرة مع ذكرها أسباب ودوافع فعلتها وكيفيه العلاج والتحصين من السحر.

و حين انتهائها «لم يكن رحيم يريد أن يمنحها كل تلك الحزمة من المال لكن الأمل الذي بنته في نفسه جعله يلقي إليها بكل ما في جيبه، وبمجرد أن ابتعد عن منزلها وراجع تفاصيل الخلاف مع "وردية" مزق ورقة الطلّابات وعاوده الاعتقاد بأن ليس أمامه سوى استماله والدها، فقد فشلت كل محاولاته في استرضائها»².

لم تكتف "الضاوية" بكل هذا واستمرت في اكتشاف أشياء وأمور تشعرها بالراحة بدل الحزن الذي حلّ على حياتها، إذ بها تقصد أماكن تطلب منها البركة والرزق والصحة كحمام ملوان المتواجد غرب عاصمة الجزائر، فقد «ارتاحت من ألم مفاصلها لأن الدّلاكة في "حمام ملون" جعلتها تسترخي وأنها قد نالت بركة المكان بعد أن خضبت شعرها ويديها وقدميها بالحناء وأشعلت الشمعة ودعت الله أن ينعم عليها بالصحة»³. وعند انتهائها وشوشت عليها إحداهن أن تجمع ماء غسيلها، وترميه في التراب و تخفي الصابون الذي استحمت به في مكان آمن، فلو حصلت عليه احداهن ستسرقه منها تستعمله في أمور السحر والشعوذة..

¹الرواية، ص260.

²الرواية، ص261.

³الرواية، ص153.

هناك عادة أخرى تتمثل في قطع الجداول الطويلة للفتاه بواسطه سكين، كأنها كبش فداء أو أضحية لدفع البلاء، وبهذه الطريقة تعتقد الأم أنّها تبعد الأنظار عن ابنتها بفعل جاذبيه شعرها وملمسه الحريري المماثل لشعر الهنديات، حفر الموقف هذا في نفسية "سامية" وتساءلت: «لما استعملت السكين بدل المقص؟ أ لأنها أرادت أن تمارس طقوس تقديم الاضحية لدفع البلاء؟ ولما احترقت تلك الجداول ولم تلق بها مع باقي تلك الفضلات او تظمرها في التراب كالعاده؟ لأنها أرادت أن تقطع عنها ذكرى أنوثه مغرية»¹. لجأت أمها إلى إقصاء أنوثتها وعزلها عن كل ما يربطها بالحياة، وقد تعمدت بفعلتها طمس وإبادة مفاتها وبدون شك لم تستمع لتوسلاتها وإصرارها على ترك شعرها بل اعتادت على قصه بسكين وحرقة للتخلص نهائيا منه، فلم يبق لها سوى أخذ ذلك الرماد المتبقي من شعرها ودفنه تحت شجرة اللبلاب أملا أن تنمو لها جداول اخرى.

في حين بالغت أم "حبيبة" في قلقها عن عدم زواجها بعد أن زوّجت ابنتها الأقل سنا منها، فلم تترك أية وسيلة لإقناعها. ولكونها مسكونة بهوس العين والسحر ترى ابنتها سيئة الحظ، فهذا ما دفعها لطرق باب العديد من العرافات «لتجلب لها تاتم الحظ من الشيخ الفلاني وتجبرها على التبخر بوصفات فلانة والاستحمام بعقاقير تحضرها فلانة بكرامات»². ينتج ذلك عن خوف الأم من مستقبل ابنتها حتى وإن كانت متعلمة وعاملة، ولكن زواج الفتاة أهم بكثير من ذلك حسب نظرة المجتمع.

يعد المجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات التي تتنوع فيها العادات والتقاليد والأعراف والقيم الدينية والاجتماعية للأفراد، التي لها أهمية بالغة تساهم في وحدة المجتمع فلا يمكن الاستغناء عنها كإقامة الأعراس بالزغاريد والحناء... تسترسل الساردة في ذكر كم كبير من العادات والتقاليد والممارسات الطقوسية، حيث تعتبر الزغاريد أو اليويو بمثابة الإعلان عن الفرح في البيت تطلق في عدة مناسبات كالزواج، الختان الخطوبة، الحج، حفلة السبوع للمولود الجديد... وهي من العادات الموروثة جيلا عن جيل وجدت منذ القرن السابع عشر، ورد تعريفها في الرواية أنّها: «مناورة ماهرة تمتطي مراوغات الجسد للروح كان تموها عن الحزن بفقاعات الفرحه وتوالي الفرحه بدخانات

¹الرواية، ص53.²الرواية، ص132.

الحزن وتستغفل قواعد الزمن والمكان، فتبني فتبدي الصبية عجوزا مبجوحة والعجوز صبية غضة، القمة سفحا منبطحاً، والشدح علوا مرتفعاً»¹.

وتضيف الساردة: «تطلقها النسوة في بعض المناطق من شمالها بمجرد أن يخرج العريس من خلوته المقتضبة كشهادة لثبوت العفة والبراءة من الخطيئة، وتحبسها في حوصلتها كحكم بالإدانة والدنس والذنب»².

فالزغاريد ما هي إلا تعبير عن الفرحة تطلقها المرأة في عدة مناسبات منها زغرودة

"الضاوية" في حفلة سبوع ابن "رحيم" وزواجه من "ربيعة".

أما حفلة الحناء فتقام للعروس والمولود الجديد فالعروس كما تقول الساردة: «... ليلة الحناء التي تسبق ليلة الدخول بيوم واحد، ذهب أهله لأجل تخصيص يد العروس بالحناء مثلما هي العادة في "الملونة" فاستقبلهم أهلها استقبالا يثير الهلع، أشارت إليهم قريبات العروس بالألا زغرودة ولا أمجيبات»³. إذ أنها ليلة وداع العروس وآخر يوم لها من العزوبية، يحتفل بها منذ القديم وما زالت الى يومنا هذا أهم طقوس الاحتفالات العربية تقام في الليل مصحوبة بأجواء الفرح والغناء والرقص والزغاريد لا تختلف هذه الأجواء عن احتفال السبوع الذي أقامه "رحيم" لمولوده الثاني من زوجته الأولى "ربيعة" بعد سبعة أيام من مولده حيث يضمن فيه حضور الأهل والأقارب مع تقديم أضحية (كبش) ...

هذه العادات التي تجسد الاحتفالات بكل أنواعها مبنية على الجماعة فلولاها لما

استطاع الفرد بمفرده اظهارها بالصورة التي هي عليه الآن، رغم كمّ الصعوبات المادية والمالية ما زالت صامدة، وهي تشتغل دائماً ضد صالح المرأة وإخضاعاً للمجتمع الذكوري حتى وإن أوهمت أنها حماية لها، ومنها ما يسهم في تقوية الأواصر في المجتمع لجعله على رأي واحد.

ولذلك يرى ايميل دوركايم: «إن العادات والتقاليد الاجتماعية مفروضة ملزمة وفرضها

والتزام الافراد بها يشعروهم بالراحة. ويفسر إلزامية الفرد بالقيام بها»⁴. ومنها بعض العبارات

¹ الرواية، ص13.

² الرواية، الصفحة نفسها.

³ الرواية، ص397.

⁴ هاجر زيادة، رمزية العادات والتقاليد، مجلة أنتربولوجيا، مجلد6، عدد2، الجزائر، 2020، ص37.

كالسلام وغيرها من كلمات الإطراء التي تخرج من الأفواه بشكل تلقائي كأنها دعاء بوقاية الانسان من شر كقول: «العاقبة لأولادك!» كلما ذكرت أمرا مفرحا و«بعيد الشر عليك وعلى ما تسعاهي!» كلما ذكرت أمرا سيئا. و«الله يبارك في رزقك!» كلما ذكرت النزاعات على العقارات»¹. وتكاد تكون هذه العادات من يوميات قرية «الملونة» المتوارثة جيلا عن جيل، وهي تعكس سلطة المؤسسة الاجتماعية باختلافها وتعدّد وظائفها وتأثيرها في العلاقة بين الرجل والمرأة.

المبحث الثالث: سلطة المؤسسة الدينية.

أطر الإسلام لمكانة المرأة وساوى بينها وبين الرجل في جميع التخصصات وأعطاهما جلاّ حقوقها وهذه الحقوق في المجتمع العربي الذكوري ما هي إلاّ حبر على ورق لا يعترف بها، فقد سلّب منها حقّها كما كان يسلب في الجاهلية إذ ينتهك جسدها وتدنس هويتها فيحرم خروجها من البيت. ورغم أن الإسلام منحها جلاّ حقوقها في السفر أو قضاء أشغالها خارج البيت، إلا أن شرط ارتدائها الحجاب أصبح وسيلة لفرض الهيمنة على جسد المرأة وعقلها من قبل المجتمع، يتضح ذلك من خلال خطاب «طارق» في الرواية الذي يقول فيه: «على أختنا ربّعة أن تضيف لحجابها النقاب وتلتزم البيت لحد ان يقضي الله في أمرها»². هنا استغل أخوها الموقف لصالحه وجعلها رهينة لطاعته.

وعلى ما يبدو فإنّ السلطة التي تمارس على حياة «ربّعة» الشخصية وغيرها من النساء اللاتي فرض عليهن الحجاب والنقاب وتساوم على حريتها تستمد مشروعيتها من سلطة أكثر مركزية وبالأحرى هي مؤسسة دينية ذات طابع اجتماعي باسم التعصّب الذي يضرّ الأنثى ويشعرها بالاحتقار والهيمنة. حيث تقول نهال مهيدات في هذا الصدد: «إنّ الحظر المفروض على خروج المرأة (سافرة/محجبة) ووضعهما في كفة ميزان واحدة لا يدخل في سياق التحريم شرعا فقط، وإنما هو جزء من عادات المجتمع وتقاليده التي يحظر

¹ الرواية، ص114.

² الرواية، ص263.

بموجبها خروج المرأة لأي سبب كان»¹. فالرجل بثقافته الذكورية يقصي المرأة من الحياة العملية ليضعها بين أربع أصوار تتحمل أعباء المنزل، الجنس والإنجاب ورعاية أهله وأولاده، ليبقى هو في معزل من الفوضى التي تعيقه من أداء مهامه.

منح الإسلام للمرأة الحرية المطلقة للعمل ولكن نظام المؤسسة الدينية الذكورية حرم عليها ذلك وجعلها حبيسة المنزل، وهكذا كان اشترط عدم عمل "ربيعة" ضمن اتفاقيات العائلتين بالزواج «فقد قبل والدها بجميع شروطه وأكد له أنه يوافق الرأي في عدم خروجها للعمل رغم أنها متحصلة على ليسانس في علم النفس، وأن يتم الزفاف بمجرد انتهاء امتحانات التخرج وأن يقيم في البيت العائلي، وأن لا تتخطى عتبة الشارع دون مرافق.. لأنها من واجب بنت العائلة وقناعات الرجل الحقيقي»².

من أكثر المؤسسات هيمنة في رواية "ذاكرة هجرتها الألوان" نجد المؤسسة الدينية والتي طغت على لغة وأسلوب شخصيات الرواية كلها، ويتجلى ذلك في مختلف الالفاظ الدينية من تسبيح، واستغفار، تصوير مشاهد جنائزية على الطريقة الاسلامية إضافة إلى تعزيز نصّها بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. ولكن أغلب هذه الممارسات اللفظية الدينية كان ظاهريا يخفي في بعض الأحيان عكسها، حيث تذكر الساردة أنّ البطل "رحيم" رغم اعتناقه للدين الاسلامي إلا أنه «لم يكن ذلك الحريص على أداء فرائضه الدينية»³. فهو لا يصلي ويشرب الخمر ويدخن ويزني غير آبه للعواقب، مما تسبب بانعدام صفة الوفاء والاخلاص اتجاه زوجاته، فراح يعدّد ناسيا شرطا الله عز وجل في الانصاف والعدل لقوله تعالى: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعًا ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا»⁴. وناسيا ايضا أنّ أبيض الحلال عنده الطلاق.

¹ نهال مهيدات، الأخر في الرواية النسوية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، عمان، 2007، ط1، ص43.

² الرواية، ص146.

³ الرواية، ص188.

⁴ سورة النساء، الآية 3.

إلى حين أن أدرك بأن «...غاية الزواج الديمومة والاستقرار»¹. ولكن ذلك حصل بعد فوات الأوان، أي بعدما تخلت عنه كل من "وردية" و"ربيعة" و "خوخة" وصادف كذلك اليوم وفاة "الضاوية" فكانت انطلاقه "رحيم" في الزهد والتوبة للتكفير عن أخطائه، من لحظة موتها مباشرة فقد هزّه موتها هذا غير متوقع عاد بذاكرته إلى الوراء وتذكر كل ما كان يقوم به، وقرر أن يتفرغ لواجباته كأب ويطلب الصّفح من زوجاته. واعترف بينه وبين نفسه فيما يخص الحالة التي آلت إليه كلّ علاقاته، بدءاً بـ"حبيبة" التي قسا عليها وعنفها وتركها بخطيئة توأمين في ذلك الحين «تدفقت أسئلة منكر ونكير تدفق مصهور الحديد إلى جمجمته بماذا ستجيب حين يسألانه عن حبيبة؟! بأنه قد ظلمها بتصغير علاقتهما وحصرها في زاوية المتعة»². فحبيبة سعت أن يكرمها بالعلنية ويجمع شمله مع أولاده بدل أن يضمّها إلى قائمة العشيقات اللواتي عرف منهن المئات.

بعدما بيّست ربيعة من علاقته به، عقدت العزم أن تتفصل عنه نهائياً وأن تعيد بناء حياتها من جديد تقول الساردة: «وهي الملتزمة بأمور الشرع التي تؤمن بأن السابح في الخطيئة غريق حتى لو طفا على السطح. لا نفس له إلا في بخاراتها الخانقة!»³. والمعنى أنها متمسكة بدينها ولكنّها في نهاية المطاف استسلمت لواقع أنها مطلقة.

وكذلك "وردية" كانت مؤمنة متمسكة بالدين فكلما كانت المشاكل تزداد في بيت العائلة كانت تقرأ القرآن الكريم، تقول الساردة: «أعادت ترتيب السرير ثم اغتسلت وغيّرت ملابسها، شعرت بالحاجة لقراءة القرآن بعد تجربة غطستها في دوامة القبر، تأسفت لأنها لم تكن على طهر ثم اهتدت إلى المسجل ووضعت فيه شريطاً لسورة البقرة وراحت تردّد كلمة (أمين) كلما وصل إلى مسامعها دعاء من الأدعية»⁴.

حتى "الضاوية" تمنّت قبل موتها زيارة مكة المكرمة للتكفير عن ذنوبها، ما جعل "رحيم" يشعر بالندم لعدم تمكنه من تحقيق رغبتها الأخيرة رغم إمكانياته المادية فقد «سمعها

¹ الرواية، ص 375.

² الرواية، ص 119-120.

³ الرواية، ص 375.

⁴ الرواية، ص 262.

مرات تتمنى ولم يحس بحرقتها إلا أمام نعتها¹. رغم الاعتقادات التي تتبعها وعهد الحرمان الذي لازمها طيلة حياتها إلا أنّ قلبها ينبض بالإيمان.

فكانت كل هذه الممارسات الدينية من التوجيهات الغير مباشرة لم تجد لها المرأة بديلا لتحمل المآسي وظلم "رحيم"، الذي كانت له فلسفة في فهم الدين، فكان يؤمن باليوم الذي يتوب فيه فيرى الأمر الذي يمنعه هو هوسه بالنساء لا غير، ولأن المشروب لم يكن يؤثر عليه ولا يتناولها دائما إلا في المناسبات «لكنه يرد على دعوته اليه بثقه متناهية: إلا الكبائر فيرد عليه جمال ملامح لعلاقاته مع النساء، جرعات دار السلطان² من الصغائر؟! فيخمد الحديث في بداية إنكاته باستسلام: لا يكف الله نفسا إلا وسعها³. في الأخير يلبس برنوس جده المتوارث جيلا عن جيل ويخرج إلى صلاة العشاء بعد مدة من انقطاعه عن أدائها.

المبحث الرابع: تواطؤ مؤسسة العدالة.

إنّ وعي الساردة "فضيلة ملهاق" لم يأت من العدم، بل كان ثمرة دراستها في مجال القانون الذي تعتبره محطة هامة من محطات حياتها، وهي القاضية التي تفك النزاعات، وقد مهّد لها الطريق في الكتابة واستطاعت من خلال خبرتها تجسيد بعض القوانين في روايتها، والتي مارسها المجتمع للتمييز بين الجنسين. وقد اختارت تأطير روايتها بزمن التسعينيات والعشرية السوداء وأن تعالج من خلاله قضايا متعدّدة وخصوصا المنتهجة ضد المرأة لأن «التشريع يعطي للمرأة حقّها ويعاملها معاملة يتجلى فيها الإنصاف والعدل»⁴. لأنه في

¹ الرواية، ص 331.

* دار السلطان: بيت متواجد بمنطقة برج الكيفان شرق العاصمة اشتره والد رحيم من كولون غادر البلاد غداة الاستقلال وسبب تسميته يعود إلى مزحة بدأت حينما أغرم رحيم بزملة تتجاهله وتصدّ كل محاولاته في التقرّب منه، فكان في كلّ مرّة يجتمع فيها مع رفاقه، يشغل شريط يجبرهم على سماع القصد الشعبي دار السلطان عجب (شعر ملحون يعود للروائية فضيلة ملهاق) وتمّ بعدها الاتفاق على هذه التسمية وأصبحت ميزة وكرهم، يعد ملاذ للمتعة بالنسبة له، فكان كلما يتعرف على فتاة يصطحبها إلى هناك.

³ الرواية، ص 188-189.

⁴ أوريدة عبود، من التهميش إلى الهيمنة مقارنة في رواية اكتشاف الشهوة لفضيلة الفاروق، الرواية النسائية في الجزائرية، نشأة وأسئلة الكتابة، إشراف د. نورة بعيو، ص 214.

المجتمع المرأة لا تزال مظلومة من عدة قضايا كالتحرش الجنسي، الطلاق، حق النفقة وغيرها...

نبدأ بدعوى الطلاق والتي وردت بكثرة في ثنايا الرواية، استخدمها البطل "رحيم" لفرض هيمنته على زوجاته، باعتباره حل لعقدة النكاح يتلفظ به الزوج ويكون إما طلاقا رجعيا يستطيع ارجاع زوجته دون عقد جديد قبل أن تنته من عدتها، وإما أن يكون بالتراضي أي بحل سلمي وهو الأكثر شيوعا لفك رباط الزواج، وهو ما تنص عليه المادة 48 من قانون الأسرة «تنص على الطلاق بالتراضي (الأمر 02/05، المؤرخ 2005/02/27) مع مراعاة أحكام المادة 49 أدناه، يحل عقد الزواج بالطلاق الذي يتم بإرادة الزوج أو بتراضي الزوجين أو بطلب من الزوجة»¹. و يكون اتفاقا كتابيا حول آثار الطلاق من نفقة وحضانة ومسكن وغيرها من الأمور

طلق بطل روايتنا زوجته الأولى "ربيعة" المرة الأولى عندما اكتشفت خيانتها برسائل، والمرة الثانية عندما لم يستوعب حملها الثاني، والمرة الثالثة في لحظة غضب لأنها أساءت معاملة ابنته إيناس من "وردية"، وهذه المرة كانت عودتها لذمتها مستحيلة لأن أحد الشيوخ أخبره عن استحالة رجوعهما إن لم ينكحها غيره فهو يملك الحق بتطليقها مرتين فقط وارجاعها في الثالثة إن لم تنته من عدتها.

ففي القانون الجزائري «لا يمكن أن يراجع الرجل من طلقها ثلاثة مرات متتالية إلا بعد أن تتزوج غيره وتطلق منه أو يموت عنها بعد البناء»². فلم يكن لكليهما خيار واحد إلا الطلاق بالتراضي وهو ما تنص عليه المادة 48 من قانون الأسرة، «مضت مدة على طلاقها من رحيم بالتراضي بعد أن رفضت أن تعود إليه على ضرة»³.

نفس الأمر حصل مع الزوجة الثانية "وردية" لكن لسبب وظرف مغاير، فقد سئمت من خيانة زوجها فطالبته بالخلع، تقول الساردة: «قد رفعت ضده دعوى الخلع غير أبهة لتهديداته بأن يحرمها من ابنتها»⁴. ففضية الخلع من الجانب القانوني هو إجراء تعسفي

¹ قانون الأسرة، مطبوعات الديوان الوطني للأشكال التربوية، 2005، ط4، ص11-12، من موقع: alyssir.com

² المادة 58 من قانون الأسرة، من موقع: <https://elmouhami.com>، يوم: 2024/05/07.

³ الرواية، ص262.

⁴ الرواية، ص400.

للمرأة في طلب الطلاق، تقوم الأخيرة بإيداع طلب في المحكمة من خلاله تضمن الحضانة ونفقة العدة والمسكن.

وهذا تحديدا ما سعت لتحقيقه فقد وقر لها "رحيم" كل متطلباتها المادية لثرائه، إذ قصد تهديدها بحرمانها من ابنتها ضعفا منه لأجل بقائها معه، ولكن قانون الاسرة الجزائرية لم يعطه الصلاحية الكاملة لأن الحضانة بمعناها هي رعاية الولد و التكفل بتعليمه والسهرة على حمايته، كما ورد في المادة 64 من قانون الأسرة: «الأم أولى بحضانة ولدها، ثم الأب ثم الجدة من الأم ثم الجدة من الأب ... وعلى القاضي عندما يحكم بإسناد الحضانة أن يحكم بحق الزيارة»¹. إذ يمنح الحق للزوجة في المادتين الخلع-الحضانة فك الرابطة الزوجية، وخصوصا عندما تتأذى الزوجة ببقائها معه نفسيا ومعنويا ووجب الخلع لضمان حرّيتها.

إن مؤسسة العدالة التي تفك الخلافات بين المرأة والرجل وتضمن لها بعض الحقوق في حالة تعارض الحكم مع الدين، هي نفسها التي لا تستطيع أن تصمد أمام منع المرأة من الميراث كقضية "الضاوية"، التي هي نموذج للمرأة التي حرّمها حقها في الميراث بسبب هيمنة ذكور عائلتها، لا تملك أي مانع قانوني أو ديني يسلبها هذا الحق ويمنعها من المطالبة به ولذلك تجنب أخواتها من أمها و أبيها الاحتكاك بها والتواصل معها وحتى أبوها عميل فرنسا اعتبرها جزءا من ماضي حاقد يطارده، لم يعلموها حتى بيوم وفاته ليتجنبوا سؤالها عن حقها « وحين أرادت الاتصال به كان قد أصبح من الماضي الغابر، ولم تتمكن حتى من معرفة تاريخ وفاته. أخفاه عنها اخوتها مثلما أخفوا عليها وجودهم ومكانها ليغلقوا في وجهها باب الارث»².

فمؤسسة العدالة لا يمكنها التدخل أمام سلطة المجتمع الذكوري لصالح المرأة رغم أنه نظريا يضمن حقها، ولذلك فحرمان امرأة من الميراث يعد عقلية ذكورية رسخت في ذهن الآخر، وانبتقت من رحم العادات و التقاليد الفاسدة والظالمة، حيث إن «القانون يقيم وزنا واحتراما للعادات في تطبيقه، فأحكام القانون تخفف في حالات القتل بسبب الشرف والاعتداء على العرض وسبب الخيانة الزوجية، بل إن الحياة القانونية في أغلبها تركز في بعض

¹ قانون الأسرة، مطبوعات الديوان الوطني للأشكال التربوية، ص15.

² الرواية، ص245.

البلدان كإنجلترا على العادات الموروثة»¹. وهذا دليل أن المرأة مستغلة منذ عصور ومن عدة جوانب ليس فقط من جانب الورثة، إضافة إلى الاغتصاب الذي مرت به العديد من الشخصيات الأنثوية الأخرى في الرواية من الجنس الآخر. فالإغتصاب يعني به محاولة إلحاق الضرر بالضحية جنسيا ونفسيا ويقوم على التهديد أو الثقة، لقد أصبح تعرض المرأة لهذه الاشكال من العنف متكررا، لدرجة أنه تحول لضرورة حتمية في السلوك الذكوري سواء كان تحت تأثير المهلوسات والمشروبات الكحولية أم بدونها.

كان "رحيم" مدمنا على النبيذ أحيانا مع أصدقائه أحيانا أخرى مع عشيقاته، وفي المقطع التالي مثال بسيط عن الأجواء التي صورتها الساردة وهو برفقة "خوخة" «حكاية "خوخو" مع الكأس ... جرته امرأة من عرقوب دماغه الذكوري، وجعلته، يشرب يزني ويتمم بكلمات الشرك ويقتل حق باقي زوجاته عليه»². بعدها اعتاد على تناوله كلما سمحت له الفرصة في الملاهي أو في دار السلطان مع رفاقه.

هذه بعض الإكراهات التي تتعرض لها المرأة كما تصورها النماذج النسائية التي أثبتت بها "فضيلة ملهاق" روايتها، وهي نتاج المجتمع الذكوري بمؤسساته المختلفة الذي يعطي الحق للرجل في كل شيء، ويحرم المرأة ويمارس عليها ضغوطات نفسية وجسدية، هي ما يعبر عن الهيمنة التي برزت في الرواية من خلال آليات معينة مارسها بطل الرواية "رحيم" على النساء، وهو ما نتعرض إليه في الفصل الثاني من هذا البحث.

¹ عبد العزيز عزت، السلطة في المجتمع، ص 79.

² الرواية، ص 367.

الفصل الثاني: مركزية الرجل وآليات الهيمنة.

المبحث الأول: الهيمنة الرمزية.

المبحث الثاني: الهيمنة بالخطاب.

-خطاب التهديد والإكراه

-خطاب الإقناع بالإغراء

-أسلوب الإغراء بالماديات

المبحث الثالث: الهيمنة الجنسية.

المبحث الرابع: الهيمنة بالقوة الجسدية.

تمهيد:

تعتبر علاقة الزواج علاقة مقدّسة منذ الأزل وسنة من سنن الحياة وسبب للخلفة والبقاء، وبالتالي فإنّ هذه الرابطة القويّة تحمل قيماً كثيرة إذ يكمل الرجل المرأة وهي بدورها أيضاً تكمله، فكل واحد منهما حوائجه ومنافعه من وجود الآخر لجانبه، إلا أنّ بعض العلاقات تجسّد قيماً كثيرة، ومعاني مخالفة ومنفرة لهذه الرابطة الطاهرة، وتظهرها بأبشع الصور من خيانة وعنف وعدم المبالاة وغيرها من تصرفات شنيعة وكلّها معنيّة بالرجل على وجه الخصوص، باعتباره وكونه المهيمن الأوّل في العلاقة فكيفما كان هو يتحدّد مصير العلاقة بينه وبين شريكه. إذا كان يلجأ إلى العنف تكون العلاقة مليئة بالمشاكل وإذا كان وفيّاً وعطوفاً تكون العلاقة في أسمى مراحلها من ود ومسالمة.

يعدّ مصطلح الرجل رمزا ودلالة على الثقافة الذكوريّة، فقد عرف مفاهيم متباينة في السّاحة الأدبيّة: يقول جيرالد هوتير في هذا الصّدد: «الرجال يملكون عقلاً مغايراً لعقل النساء يعمل بشكل مختلف أيضاً لذا فهم يستطيعون_ وفقا للوسائل الإحصائية_ أن يفكروا فكراً محدوداً... لهذا هم ليسوا قادرين على التخفيف من حدّة الصراعات الاجتماعية بعقولهم تلك»¹. ويعني بذلك استحالة تطابق الجنسين في طريقة التفكير واستيعاب الأمور. كما يمكن اعتباره عكس ذلك فالرجل يعتبر «...جزءاً مكملًا لمقتضيات الأنوثة»². وهي في كلتا الحالتين شريكها في الحياة.

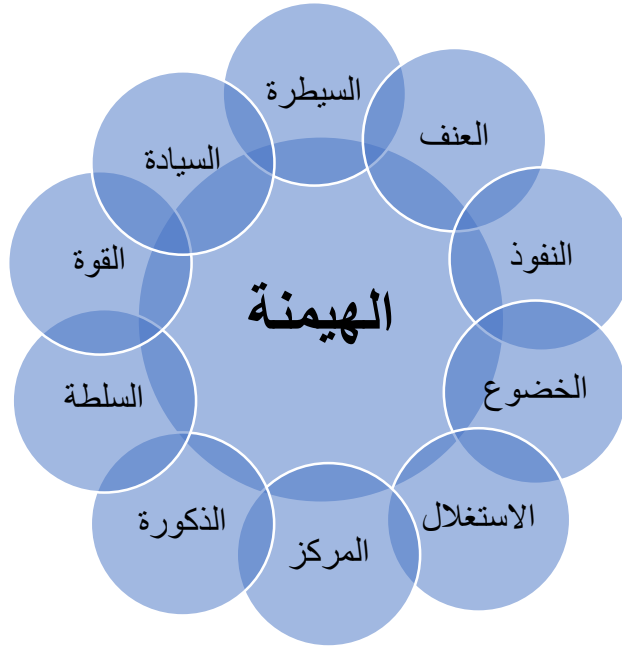
ولقد شكّلت العلاقة بين الرجل والمرأة أهم الموضوعات المركزيّة في الرواية النسوية الجزائرية، وعلى وجه الخصوص رواية "ذاكرة هجرتها الألوان" للكاتبة فضيلة ملهاق، والتي تميّزها حضور شخصية نمطيّة مهيمنة هي الرجل وسنحاول في هذا المبحث الكشف عن أساليبه في التّعامل مع المرأة. وهي كما تبدو في الرواية أساليب هيمنة وسيطرة يعتقد من خلالها الرجل بما يمتلك من قوة الجسد أنه يستطيع إخضاع المرأة التي كانت علاقتها به علاقة امتلاك وتسلط على مدى التاريخ الإنساني.

¹ جيرالد هوتير، المرأة والرجل (أيهما الجنس الأضعف) تر: د. علا عادل، المغربي للنشر والتوزيع، مصر، 2011، ط1، ص15.

² عبد الله ابراهيم، الرواية النسائية العربية، تجليات الجسد والأنوثة، مجلة علامات، ع17، المغرب، 2002، ص37.

المبحث الأول: الهيمنة الرمزية.

لا يخلو التاريخ البشري من تعاطي ظاهرة العنف بمختلف أشكاله وأحجامه، فالرجل غالبا ما يتخذ العنف كسبيل ووسيلة لتحقيق أغراضه، وأهم غرض له استرجاع مكانته والحفاظ على شرفه، وقد تعددت مظاهر العنف ضد المرأة إلى "عنف رمزي" و "عنف جسدي". فمن «المعلوم أنّ العنف نوعان: عنف فيزيائي يكون بإلحاق الضرر بالآخرين جسديا وماديا وعضويا، وعنف رمزي مهذب يكون بواسطة اللّغة والهيمنة والإيديولوجيات السائدة والأفكار المتداولة، ويكون عن طريق السّب والقذف والدين والإعلام والعنف الذهني»¹. وهذا يعني أن الهيمنة بالخطاب تتدرج حول ما يسمى بالسلطة الرمزية (العنف الرمزي) هو عنف خفي وهادئ، يتّخذ أصحاب القوة والنفوذ (مثلا الذكور على الإناث) في وضعية هيمنة لفرض مرجعياتهم الأخلاقية والفكرية ضدّ أتباعهم، وذلك عن طريق إظهار القوة والتعسف في الخطاب أو يلجؤون إلى ممارسة الليونة واتخاذ الإقناع وأساليب الإغراء بالوعد وبالماديات وغيرها. ممّا يندرج ضمن مفهوم الهيمنة الذي تم تداوله في الفلسفة وعلم الاجتماع وانتقل إلى النقد الأدبي ليتّخذ موضوعا من موضوعات تحليل الخطابات. لا يمكن أن نحصر مفردة الهيمنة في مفهوم واحد، فهي تتعدى ذلك كونها وسيلة لتحقيق التفوق في مختلف المجالات الإنسانية. ومن أهم المفردات التي تحملها هذه الكلمة:



¹جميل حمداوي, العنف الرمزي عند بيير بورديو من موقع laghoo.com يوم:2024/02/10.

كلّ هذه المفردات: السيطرة، السيادة، الاستغلال، النفوذ، وصنع القرار والتأثير.... وغيرها تتفق على ممارسات تلحق الأذى النفسي والجسدي بالخصم، ألا وهي: «ممارسة الذم والتشنيع والتجريح بلغة الشتم البذيئة، وعلى تقصد إيذاء المخاطب في مشاعره الشخصية أو القومية أو الدينية، أي في أخص ما يشعره بهويته... إشباع رغبته في التلذذ بتعذيبه»¹ وحيث تتجاوز كلمة الهيمنة دلالات رمزية متعددة تحيل إلى التغيير والتقدم من جهة وإلى التسلط والسيطرة من جهة أخرى.

والهيمنة هي ديناميكية تنتج خطاب السلطة والنفوذ، وهي سيرورة مستمرة تمارس السلطة بشكل رمزي، مرادفة للتسلط والعقاب والتطويع، ومن آلياتها الاضطهاد والقهر والعنف وهذا ما اختزله العنصر الذكوري بتبنيه الهيمنة الذكورية. «ففي إحدى موسوعات علم الاجتماع نجد أنّ الهيمنة domination تتخذ معاني كثيرة كالعبودية، الطاعة، والامتثال عن طريق القهر... فالأفراد يمارسون القوة بعضهم على البعض الآخر سواء باستخدام القوة بطريقة مباشرة (مادية) أو على أساس أنّ من تمارس معهم هذه القوة يتخلون عنها قوة شرعية (معنوية). أما في علم النفس نجدها بمصطلح آخر: السيادة، ألا وهي حالة نفسية فيزيولوجية يكون بها الأسبقية على غيرها من الحالات والخصائص بمعنى نزعة التحكم في الغير»². يتضح من خلال التعريفين في كلا المجالين الاجتماعي والنفسي أنّ الهيمنة استخدام غير قانوني للقوة، تحمل مرادفة لمفهوم السيطرة والسيادة، المعبرة عن شعور داخلي راسخ في النفسية البشرية.

حيث سعى عالم الاجتماع الفرنسي "بيير بورديو" في كتابه "الهيمنة الذكورية" (domination masculine) إلى إظهار مواضع للهيمنة والخضوع التي تقوم بين الرجال والنساء، وذلك بدراسة نظرية وميدانية متخذة الوجهة إلى "قبائل الجزائر"، سعى من خلالها لتوضيح الاختلافات الجسدية والبيولوجية بين الذكور والإناث وكذا المركزية الذكورية التي تضع الرجل في موقع المركز وتضع المرأة في الهامش، وذلك عبر ما يسميه «بالنظرة

¹ عبد الإله بلقزيز، نهاية الدعاية الممكن والممتنع في أدوار المثقفين، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000، ط1، ص43.

² ينظر: علوش جميلة، الهيمنة الذكورية في الحكاية الشعبية، قراءة سوسيوثقافية من منظور بورديو، بحث لنيل الماجستير، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2014، ص8.

الفالونرجسية (phallonnarcissique) أو الأندرومركزية (androcentrique) * . فيعكس هذا الأخير (بربر الأمازيغ) الصورة المثلى للهيمنة الذكورية وكذا الحفاظ عليها مقابل مجتمعات أخرى كألمانيا وفرنسا واليونان¹.

رغم بلوغ المجتمعات الحديثة أسى درجات الرقي والتطور في مختلف ميادين الحياة وبروز شتى وسائل الإعلام والاتصال، تبقى هذه الهيمنة فكرة ظهرت مع الإنسان العاقل، وسمة من سمات البشر السيئة وأحد الأساليب ولما لا بل الأسلوب الوحيد لفرض وتحقيق أي عنف ممارس بالخطاب (اللغة) أو الجسد (القوة) يهدف إلى إلحاق الأذى بالطرف الآخر الفرد خاصة والمجتمع عامة، فهي إذن من منظور بحثنا هي هيمنة ثقافية تعتمد على الطبقة المركزية الذكورية صوب الطبقة الهامشية الأنثوية.

فالذكورية: هي لفظ عام يطلق على مجموع السلوكيات والأفكار والقوانين والتفسيرات التي من شأنها سيطرة الذكر في مجتمع ما على الأنثى، إذ أنّ الذكورية أو الرجولية حسب بورديو «تعتبر ماهية القوة والسيطرة والتسلط والعنف، والطبيعة نفسها تفرض الهيمنة الشرعية لمبدأ الذكورة، فنجد أنّ الذكر دائماً يتمتع بالسلطة والهيمنة، فيما تكون النساء غير مسموح لهنّ المشاركة في أي مناسبة»². فقد ساد هذا التمييز القائم بين الجنسين منذ الجاهلية باعتبار أنّ ولادة الأنثى عار وأنّ احتقار الأنثى والمبالغة في الغيرة وحرمانها من كل شيء وحصر حياتها في الاعتناء بالزوج وأشغال البيت والتربية. ويضيف بقوله أن «التقسيم الجنسي للعمل والتوزيع الصّارم جدا للنشاطات الممنوحة لكلّ واحد من الجنس لمكانه وزمنه وأدواته، إنّها في بنية الفضاء مع التعارض من مكان التّجمع أو السوق المخصصة للرجال أو المنزل المخصّص للنساء»³. فحيث الرجل كونه من القرائن الاستعمارية (زوج، جد، أب، أخ) رمز القوة فإن مكان تواجده غير ثابت مقارنة بالمرأة التي مهمتها داخل الأسرة فقط. ارتكزت الثنائية: ذكورة وأنوثة على المفارقة والصدية بين عنصري: ذكر/أنثى، خفة/ثقل، الأنا/الآخر، ضعف/قوة، الخير/الشر، المركز/الهامش ... وغيرها. وحيث تقع

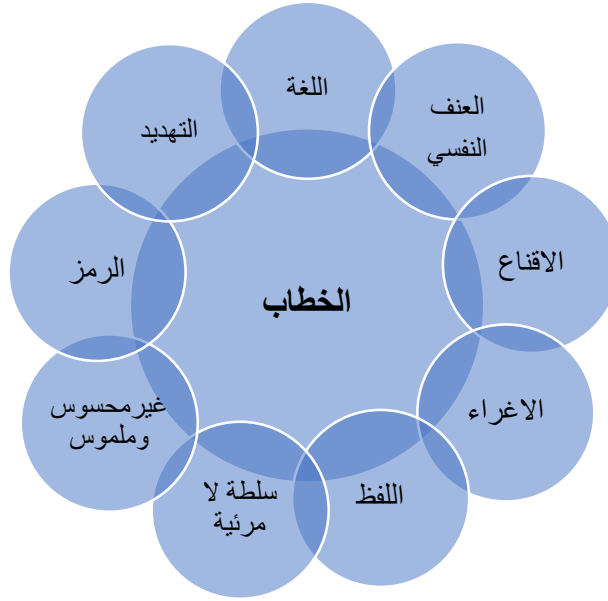
* رغم عدم وجودها في المعجم الفرنسي إلا أنّها تعني تلك النظرة التي تختصر العالم في قطب واحد هو الذكر وتتجاوز إليه، أي تلك النظرة المتمركزة ذكورياً.

¹ لينظر: د.أمال علاوشيش، المرأة في المخيال الذكوري (قراءة في "الهيمنة الذكورية" لبير بورديو)، ص2.

² بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ص40.

³ المرجع نفسه، ص27.

السلطة الرمزية الذكورية عند ممارسة المهيم الذكر للسلطة والقوة وخطابات الإقناع والإكراه والتهديد على الأنثى المهيم عليه. ولذلك يعد الخطاب الروائي المعاصر بحثاً مستمراً عن أسباب التهميش، حيث اجتمع الروائيون حول الحفر في خطابات الهيمنة والسلطة لكونها تحمل في طياتها مواضيع وآليات خطابية جديدة، وأهم المفردات التي ينفرد بها الخطاب السلطوي الذي يمكن أن نمثل له بهذا المخطط:



يعد العنف الرمزي (Symbolic violation) واحداً من المفاهيم المهمة التي تصدرت طروحات بيار بورديو المبكرة، مؤكداً على أن الهيمنة تمثل شكلاً نموذجياً للعنف الرمزي غير المرئي يقول في ذلك: «لو أخذت مفردة "رمزي" في أحد معانيها الأكثر شيوعاً، فإنه يفترض أحياناً أن التشديد على العنف الرمزي هو تقليل من دور العنف الجسدي ونسيانه (faire oublier) أن ثمة نساء معنفات ومغتصابات مستغلات، أو توخي تبرئة الرجال من هذا الشكل من العنف، وهذا أسوأ بكثير وهو ليس الحال على الإطلاق أبداً. ولو فهمنا مفردة "رمزي" بالتعارض مع الواقع والعيني، فإننا نفرض أن العنف الرمزي يمكن أن يصبح عنفاً روحياً خالصاً ومن دون أثار واقعية في نهاية الأمر»¹. أي أن تأثيره الروحي أعمق من الواقعي، ففي كل الأحوال القوة الرمزية لا تقل خطورة عن نظيرتها (القوة الجسدية). من خلال هذا التعريف الذي قدمه "بورديو" يتضح لنا أن السلطة الرمزية قادرة على التأثير في الأشخاص وذلك عن طريق العبارات اللفظية، أي عن طريق استعمال اللغة

¹ بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ص 61.

كنظام رمزي، لغرض أذية المخاطب قصداً أو بغير قصد، لذا فإنه تعمّد على ذكر الأنثى لأنه لمس فيها ذلك الضعف. إذ أن: «العنف الرمزي شكل من أشكال العنف الذكي ومفهوم سوسولوجي* معاصر ومتقدم، له القدرة على بناء المعطيات الفكرية بالإعلان عنها وترسيخها وتغيير الأوضاع الاجتماعية والثقافية والنفسية للأفراد. فعالم الاجتماع بورديو من خلال معالجاته وكتبه يقر أنّ اللغة كخطاب هي آلية خطيرة للهيمنة لا تقل خطورة عن باقي الآليات الأخرى لممارسة العنف الرمزي»¹.

تعد ظاهرة العنف الرمزي واللفظي خاصة، ضدّ المرأة من بين أخطر الحالات التي تؤثر سلباً على صحتها النفسية والجسمية، وذلك لما يتسم به من إساءة لفظية ورمزية يسببها لها الرجل غالباً والذي يلجأ مدّعماً ذلك إلى أسلوب الشتم والإهانة والاحتقار والتهديد والإكراه بهدف إلزامها صراطه والخضوع الأبدي لأوامره، وكل هذا بسبب تقاليد المجتمع الأزلية التي هضمت حق المرأة ومنحت للرجل سلطة التعالي وحق التصرف بها. وهذا ما لمسناه في الشخصيات الذكورية عامة وعند شخصية البطل خاصة، الذي لا يملك أدنى صفة للمعاشرة الزوجية الحسنة مع زوجاته.

يحتل البطل في رواية "فضيلة ملهاق" مركز الخطاب وأولى الصور الذكورية التي تعرّفنا عليها مع بداية السرد في الرواية، يمثل "رحيم" شخصية مهيمنة صنعت الاستثناء، منذ الصفحات الأولى أعطت بُعداً لعلاقة الرجل بقضية التعدد التي أشار إليها الباحثون في قولهم: «التعدّد قد يكون سر الحياة السعيدة والعمر الطويل»². ومن هنا نتساءل حول مدى تحقق المقولة في حياة "رحيم" الشخصية والعاطفية، وهل شعر بالسعادة التي كانت توهمه كثرة العلاقات في السر والعلن؟ وهل وفق في الجمع بين عدّة نساء في آن واحد؟ وهو ما سأعرضه من خلال خطاب الزوجات والعشيقات، ويمكن استخلاصها في الجدول الآتي:

*السوسولوجيا: هو علم المجتمع، يدرس الظواهر والوقائع الاجتماعية والأفعال الإنسانية في ضوء مقاربات والتفسيرات.

¹ينظر: ميلود كينه/ بشير غانية، العنف الرمزي - دراسة نظرية في مفهومه وآلياته، مجلة الشامل للعلوم التربوية والاجتماعية، مج5، ع2، جامعة الوادي، 2022، ص6-8.

²موقع يتابع الأخبار <https://arabi21.com> حول العالم، الحب - تعدد الزوجات، يوم 2024/02/15، 13:39.

المخلفات	العلاقة	المستوى التعليمي/المهني	مكان للقاء	جنسيتها	الشخصية
خلف موتها في نفسيته الخوف، القلق، الندم، تأنيب الضمير	بمثابة أم ثانية له. يؤكد أنها معه للبركة ¹	تشتغل عند عائلة رحيم لتدفع عنهم حرج بقاءها عندهم شفقة	بيت العائلة	أب فرنسي وأم جزائرية	الضاوية
توأم غير شري	زواج في السّر	طبيبة	الجزائر	أب مصري أم تونسية	حبيبة
/	علاقة عابرة	تشتغل بالنحت على الزجاج	أحد شواطئ إيطاليا	أمريكية من أصل إيطالي	أنجيلا
/	علاقة عابرة	موظفة (سكرتيرة)	المكتب	جزائرية	سامية
طفلين	زواج ثم طلاق	متحصلة على شهادة ليسانس	القرية	جزائرية	ربيعة
طفلة	زواج ثم خلع	طالبة في كلية الإعلام والاتصال	شارع العاصمة	جزائرية من أصول قبائلية	وردية
طفلتين	زواج	لم تفجح في دراستها	المهلى الليلي	جزائرية	صونيا
/	تراجع عن أمر الزواج	موظفة في سلك لطيران	سويسرا	جزائرية	خوخة

¹ الرواية، ص 39.

	علاقة عابرة	رسامة مشهورة	معرض الصور	فرنسية	كلارا
--	-------------	--------------	------------	--------	-------

هذا الجدول يمثل الشخصيات المهيم على منها من طرف البطل "رحيم"؛ حيث نلاحظ تنوع مستوياتها الاجتماعية، من سكرتيرة ومضيفة طيران إلى الرسامة والطالبة والخادمة والبطالة، وهي نماذج متعددة الجنسيات التقاهن في أماكن مختلفة، وعقد معهن علاقات انتهت إلى الزواج والانفصال كلها وبعضها كان علاقة عابرة. ولقد رسمت لنا الروائية مظاهر البؤس في هذه العلاقات والقائمة على العنف بمختلف أشكاله وأنواعه.

وفي الرواية تبرز "فضيلة ملهاق" صورة الأب اللامسؤول الذي لا يكف عن الجري وراء نزواته، ذلك هو واقع "رحيم" الأب المستهتر الذي رزق بتوأم غير شرعي من عشيقته "حبيبة"، التي ظلت تترجاه بأعز ما يملك وتتوسل إليه بأن يكرمها بالاعتراف بطفلها، وإعطائهما لقبه ويصحح ارتباطه بهما حتى وإن انتهى بطلاقه منها لكنه عتفها وتعمد تذكرها بأنها إحدى أخطاء الماضي وضمها إلى قائمة العشيقات اللواتي عرف منهن المئات، فاتهمته باستغلال حبها واتهمها باستحلاء جيبه.¹ وكان قد عرض عليها المال بمقابل الإجهاض كأنها بنت هوى، هذه الفكرة التي رأى بأنها الخيار الأمثل لحل سوء التفاهم بينهم، فأدركت "حبيبة" من خلال خطابه المفعم بالتهديد واللامبالاة أنه لا يريد كزوجة ولا يريد أن يكون مسؤولاً، وهاجمها قائلاً: «مصيدة مكشوفة تنتهي باغتياي لحظة عقد القيران، أليس هذا ما عدت لأجله؟ صفقة العمر! دكتور، أعترف كذلك بتحسّن قدراتك الذهنية»². يصور المشهد حساسة العنف الرمزي الممارس الذي احتقرها من خلاله، فأثار بكاءها وشعرت بالشفقة لحالها لأنّ توسلاتها له كانت دون جدوى.

¹ ينظر: الرواية، ص 89-90.

² الرواية، ص 89.

ورد خطاب أعمق بكثير تمت من خلاله الضحية لو أنها كانت عقيمة بسبب خطاب القابلات اللاتي كن يتهامن عليها بقولهنّ: «من ولدت له بنت له مصيبة. بنات اليوم مجرد قمامة للرجل، كل فراغ فيهن يصلح لفضلاته.»¹

وحسب قول الساردة لم يحس يوما ولو ببذرة أبوة اتّجاههم ويفتقد إلى فرصة لبناء علاقة قويّة ومتينة معهم «رحيم بطبعه المستهون الذي جعله يهد بيته و يفرط في استقرار أولاده لأجل هواه»².

فكلما يدخل في علاقة ينفر من فكرة إنجاب الأولاد وهو بالضبط ما حدث له مع زوجته "ربيعة" التي رسمت لها أمّها في مخيلتها صورة المرأة التي تخلق عنها زوجها لأنها لم تتجب له عددا من الأولاد، أما هو فلم يتقبل بتاتا فكرة الإنجاب ثانية قبل أن يبلغ ابنهما البكر عبد اللطيف سنّ الخامسة.

حينما نقلت له خبر حملها كفر "رحيم" بنعمة الله واعترض على مشيئة الولد، سلط عليها خطابا يرمي فيه اللوم عليها لأنها لم تأخذ حبوب منع الحمل. وقد حاولت التحدّث إليه لكنّها تفاجأت بإنكاره لأبوته، وأمهلها دقائق لتجمع أغراضها وتغادر بيت الزوجية والدّموع تتهاطل من عينيها. ولم يكلف نفسه يوماً عناء السؤال عن أحد أبنائه ولا تفرّغ يوماً لقضاء وقت معهم، لأنه كان دائما مشغولا باصطياد فرائس جديدة. وكعادته لم يحسن اتقان دوره كزوج وأب في نفس الوقت وكاد ينسى وضعه لولا المشاكل التي كانت قائمة بين زوجاته، ف"وردية" فرض عليه ارتباطهما عدة مشاكل بأوضاع مختلفة كزوج يحاول اسكات رغبته الجنسية بالتعدد وأب يتعثر بنظرات أولاده وابن يستشعر غضب والديه منه.

¹ الرواية، ص 86.

² الرواية، ص 309.

المبحث الثاني: الهيمنة بالخطاب.

أ: خطاب التهديد والإكراه:

اختلفت طرق تمثيل خطابات الهيمنة على الذوات أو الشخصيات الأنثوية في المتن الحكائي، وحيث خضعت هذه الأخيرة لقوة الخطاب التهديدي والإكراهي الذي يعتبر نوعاً من أنواع الخطابات القمعية حسب ميشال فوكو «إقامة خطاب تترايط فيه صرامة المعرفة بإرادة تغيير القانون (...). إنه التعاضد والتآزر بين ملفوظة القمع وصورة التبشير يحملها المثقف الشمولي الذي يتكلم باسم الإنسانية والحقيقة والمستقبل، فهو حامل راية الحق وبشارة الغد المشرق»¹. وعليه فإنّ المتحدّث بهذا النوع من الخطاب وجب عليه أن يكون مثقفاً وقوي الشخصية وصارماً وحازماً في مواقفه وقراراته.

يقع هذا الأسلوب ضمن السلطة الرمزية فهو كل «سلوك أو فعل يقوم باستخدام وسائل القهر والقوة أو التهديد باستخدامها يصدّ عن طرف بهدف إخضاع طرف آخر، فرض تحقيق أهداف مفروضة اجتماعياً وقانونياً، الأمر الذي يلحق أضرار مادية ومعنوية»². وبالتالي «يندرج التهديد ضمن أشكال العنف الموجه ضدّ المرأة، ويعني: التخويف باللجوء إلى إطلاق التهديد والوعيد. ويتّخذ التهديد شكل العنف اللفظي، لكن موضوعه مختلف»³. فحيث يتّخذ تهديد المرأة أشكالاً متعدّدة منها تهديدها بالطلاق، تهديدها بتزويجها بالغضب، تهديدها بتشويه سمعتها أو بألفاظ مسيئة إضافة إلى إكراهها في كل ما يتعلق بأنوثتها كالسيطرة والانتقاد المتكرر...

كانت البداية مع "الضاوية" رمز النور والاستتارة، سلطت عليها الساردة أهمية كبيرة وقيمة رمزية معبرة عن الوطن (الجزائر العريقة) والانتماء والاستمرارية كونها أهم فص حركي من ذاكرة "رحيم"، وشخصية قوية عاصرت الاستعمار الفرنسي، ولدت في العام 1929م

¹ ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ط1، ص23.

² شيماء فاضل حمودي وعلي الموس الخزعلي، تجليات العنف ضدّ المرأة في الأدبين الإسرائيلي والعربي دراسة تحليلية مقارنة، دار مجد للنشر والتوزيع، عمان، 2019، ط1، ص22.

³ أمل سالم و.حسن العواودة، العنف ضد المرأة العاملة في القطاع الصحي (دراسة ميدانية في مستشفيات مدينة عمان، الأردن، 2007، ط1، ص46.

الذي كانت القرية تتضور جوعا بسبب الأزمة الاقتصادية العامية، صادف الحدث يوم وفاتها خروج الجزائر من ظلام العشرية السوداء وميلاد مرحلة جديدة للأمان.

"الضاوية" لها أهمية كبيرة في حياة "رحيم" الشخصية فهي بمثابة الخالة أو تتعدى ذلك، استضافتها عائلة رحيم مقابل قيامها بأشغال البيت الكبير، ومن ثم أصبحت جزءا منهم فقد تربى على يدها وتعرف عنه أشياء لا يذكرها حتى هو عن نفسه والدليل أن تفاصيل الرواية منذ بدايتها إلى نهايتها مرتبطة بها. لكن نشأت بينها علاقة عداوة ونفور منذ الصغر، حيث تقول الساردة: «لم تكن علاقته بها تكاد تتخلص من نسيج النفور والأذى، وتغذيه تلك الشعيرات السوداء، التي تظل على شفيتها العليا بكثافة تتلاشى معها صورة المرأة رغم أنها بعيدة عن صورة الرجل»¹. يتضح من هنا أن "رحيم" لم يكن يحبها وهو طفل بسبب غلظتها وشكلها، واستعماله اللفظ العدائي معها لنعته إياها بالرجل لوجود شعيرات سوداء تعلق شفيتها. بعدما كبر توّضحت له الصورة التي يرسمها عنها في مخيلته وأدرك كل ما كان لم يدركه فيها، أدرك أنها ليست السبب في وضعها فصوتها العالي وقوتها المصطنعة ماهي إلا تحايل على ضعفها. وأدرك أيضا قيمة وجودها في بيتهم وفي حياته، حيث أصبح يستشيرها في أموره الخاصة ووظفها شكليا في مكتبه من أجل أن يبقيا مستورة ويريحها... وقد أفصحت له عن عدم إزالتها لتلك الشعيرات بسبب خوفها من الأقاويل التي تمس بشرفها، وهو ما ورد في المقطع: «لأنها كانت تخشى إن أزلتها برق جمال بشرتها البضة الصافية، وكشفت تلك الأسنان اللؤلؤية عن بسمتها الملائكية أن تطالها الأقاويل الظالمة وتطاردها المطاعم الآثمة خاصة بعد أن بدأ أقارب زوجها يتمصون من مساعدتها واحدا تلو الآخر بإيعاز من زوجاتهم اللواتي خشين أن يفكر أحدهم في الزواج بها»². فالضاوية حتى فيما تعلق بجمال مظهرها خشيت تبيانه جراء الظلم الذي لحق بها.

كانت "الضاوية" امرأة من النوع النادر في المجتمع لأنها سعت إلى إدارة شؤون المنزل وقت انصراف الزوج للعمل وتهيئة سبل المعيشة وكانت تتسم بالأمانة وتشتهر بالهمة والنشاط خصوصا في الامور المتعلقة بالطبخ والتنظيف، فهي حسب رأي هشام قبلان: «المرأة الصالحة، هي المطيعة المدبرة لبيتها، وتربية الأولاد، والاعتناء بالماشية والطيور

¹ الرواية، ص41.

² الرواية، ص40.

الداجنة، وهي تستغرق كل يومها. فلم يكن عندها مجال للفراغ المفسد للأخلاق ولا للشعور بالوحدة المثيرة للأعصاب»¹.

يُقال أنّ الرّجل لا يبكي إلاّ في حالتين الأولى إن فقد حلمه أو خسر عمله والثانية حين يفقد شريكة حياته، فعندما وافّتها المنية حزن عليها، والدليل أنّ اسمها ولحظة دفنها وحمل نعشها مذكور في عدّة فصول ومناسبات، جاء على لسان الساردة: «ليس بالسهل أن تتجاوز ذاكرته لحظة غادرها منذ سنوات خلصة وبلا وداع! تلاحقه ظلال السكاكين و رائحة الجثث»². فيشاء القدر أن يجمعها برحيم لتكمل ما تبقى من حياتها في خدمته وخدمة بيت عائلته، إلاّ أنها تجربة لأبأس بها مقارنة بزوجها الأول والثاني اللذين عاشت معهما المرارة. تربّت "الضاوية" عند جدّها وجدّتها يتيمة رغم أنّ والديها على قيد الحياة، فجدها أصرّ على طلاق أمها وهي في بطنها بعد أن استقر في فرنسا ورفض أن ترافقه، لأنه يعتبره خائناً بسبب تأييده لفكرة الاندماج غير المشروط التي تبناها الجناح المفرنس لجماعة النخبة وأوهمها بأنه سيخونها بكلّ بساطة مع أجنبية كما فعل بالوطن، وأمّها لم تستطع تحمّل أفعال وألفاظ أبيها القاسية يظهر ذلك من خلال شعورها بالنّدم «ندمت على كل مرة زكت فيها بابتسامتها موقف جدّتها وهما ينعتان أمها ب "الهائجة" و "المكلوبة" التي لم يفلت أحد من هستيريتها»³. فزوجها بدون إرادتها؛ لأنّهم ما عادوا يطيقانها وانشغلت بعدها بتكوين أسرة جديدة وتركتها تحت هيمنة جدّها تعاني الاستعلاء من قبل أهل القرية والأقرباء. بعدها بمدة فاجأها جدها العنيف بفكرة زواجها ليتخلّص منها كما تخلّص من أمّها، وتظهر عليه هيمنته من خلال الخطاب السلطوي الموجّه لها حين قال بنبرة التهديد والصرامة: «الخطاب الأول اللّي جا نعطيها له»⁴. أي أنّ أوّل رجل سيطر الباب ستكون من نصيبه حتى وإن كان شحاذا يطلب الصدقة، فلم يخطر ببالها يوماً أن يزوجها جدّها غصبا ولأكثر من مرّة.

¹ هشام قبلان، آداب الزواج في الاسلام، منشورات عويدات ومنشورات البحر الأبيض المتوسط، بيروت، 1983، ط1، ص51.

² الرواية، ص20.

³ الرواية، ص30.

⁴ الرواية، ص28.

يستعمل الرجل في أسلوب خطابه نبرة صارمة وخصوصاً في مكان العمل ف"رحيم" شريك مع صديقه "جمال: في مصنع للنسيج، له سكرتيرة تدعى "سامية" تعلقت به وأحبته، فقد كانت بداية احساسها بذاتها كامرأة مرتبطة بشفرته، رغم أنها لم تكن بذلك القدر من جمال الوجه والجسد فهي من النوع البسيط، يعتبرها الشخص الوحيد الذي لم يتوصل يوماً لتحديده، تملك معزة كبيرة في قلبه لإلمامها وحرصها في العمل، ولكن بالنسبة له ، فإن أمر الزواج يجعله يحترس منها ويعمد على مقاومتها بنظرات باردة وكأن شيئاً لم يكن بينهما في يوم من الأيام، فقد تلاعب بقلبها واستغلها وأدّلها بأبشع الطرق ما أدى باستقلالها بعدها. كانت جلّ خطابتهم في المكتب حول أمور الشغل لأنه قد مرّ عليها أن نبهها إلى طريقة كلامه معه وإلى الحدود الشائكة التي ارتسمت بينهما بعدما تزوج من المدعوة "ربيعة"، ورد الخطاب بينهما بعدما عاد من شهر العسل على النحو التالي: «- قد تستغرب ما أقوله. بقدر ما صدمني زواجك المفاجئ بقدر ما أراحي. لا أمل خيبة، الخمود راحة. بادرت دون أن تستدير ناحيته.

- النصيب لا يستأذن أحداً حين يأمر. ستدركين عذري حين يفاجئك نصيبك»¹. آلمتها نبرة صوته معها واحتجاجه بالنصيب لينفذ من فعلته، واختارت هي كبت مشاعرها وعدم الإفصاح عنها كي لا تثير شكوك زملائها في العمل، كما شعرت بالأسى لحالها لأنها تمنّت "رحيم" زوجاً تكمل حياتها معه أملاً أن ينسها ولو القليل ممّا مرّ عليها في تجربتها السابقة مع زوجها الشيخ ولكن «لا شيء يضيفه لوعيها المنقل بالنّدم، والحسرة... والخجل الكريه، عدا المزيد من الإهانة»². فهو يجرجرها حسب هواه، فلو كان يكن لها المودّة لأحس بعذابها ويأسها من الحياة ما كان ليتهرّب من موضوع الزواج الذي افتكّه الاعتقاد بأنّها لا تناسبه كزوجة.

تجلى العنف الرمزي بوضوح من خلال المقطعين، فهو يمثل كل تعد شفوي أو حركي في صورة شتم أو سب وبهذا يكون تأثيره أكثر شدة على الجانب النفسي وتحتاج الضحية عندئذ إلى وقت طويل للتخلص منه.

¹الرواية، ص50.

²الرواية، ص59.

تعتبر شخصية "حبيبة" أكثر من تم تعنيفها، ولأجل ذلك حاولت أن تسلط على "رحيم" خطابا مضادا نلمس في قولها هذا الدعاء: «وكيلك ربي لن أسامحك حتى ولو وقفت فيك الروح»¹ دليل على حرقتها ومعاناتها فهي تربط كل شيء سيء حصل معها به. فقد خلفت منه توأما ورفض تحمّل المسؤولية وقطع اتصالاته بها، لحين أن اقتحمت مكتبه وواجهته بصعوبة حملها وتخليها عن سنتها الجامعية لأجل ذلك، ترجّته بأن يرأف لحالها ويكرمها هي وابنيها بالاعتراف واللّقب، ولكنّه لم يصدّقها واتّهمها بأنها تستغيبه لتستحوذ على أمواله فقط ووصل به الأمر بتهديدها وفضحها إن استمرت بملاحقته.

بعدما كانت في أمس حاجتها إلى زوج بعد تلك الفاجعة ومستعدّة لكي تكون وفيّة له، شاء القدر أن يجمعها ب"رابح" ابن أخت رحيم، فتقرّر إعادة بناء حياتها من جديد وبعد الزّواج انتقلا للعيش في فرنسا. حينما سمع "رحيم" بالخبر ازداد حقدا عليها لأنه اعتقد بأنها تعمدت ذلك لتنتقم منه، اقتطع مباشرة تذكّرة على أول رحلة إليهم، وعند وصوله لم يمهل أكثر من ليلة، بعدها بثّ فيه قلق الدّهر بخطابه القاسي الذي ندم عليه فيما بعد «فبمجرد أن بدأ يلح له بوجود معرفة سابقة بحبيبة تسلّلت إليه رعشة فرّقت أعضاء جسده، بسّط سبّابته وراح يتشّهّد بصعوبة... لم يستفق إلّا وهو طريح الفراش وشريانه متّصل بأنبوبة مصل»². وقد قضى أسبوعين كاملين وهو في المستشفى، يقول: «أتضنّ أنّك قد أذيتها؟! كلاً فقد أذيتني أنا. آه. لو تدري ما اشعر به وأنا أفكر بأنها كانت ذات يوم معك!... والريبيان اللذان يكونان ابنا خالي!.. كيف سيكون وضعهما بيننا؟!.. أنا وأنت أصبحنا عارا على العائلة»³. ومن خلال هذا الاعتراف وقوة الخطاب التهديدي الذي دار بينهما يكون قد قضى على علاقتهما.

لم يشف "رحيم" غليله رغم كلّ ما فعله بها، فظلّ حاقدا عليها، والواضح أنّ الكره غدا شعورا متبادلا من كلا الطرفين تقول الكاتبة في ذلك: «ازداد حقدا على "حبيبة" الفزاعة المقيّنة التي خرجت إليه من الماضي لتبدد حلاوة أيام "دار السلطان" وتحولها إلى كابوس

¹ الرواية، ص 89.

² الرواية، ص 168.

³ الرواية، ص 168.

... "أكرهك، أكرهك" ردّد على صفحات ذاكرته¹. فمشاعر الكره غلبته رغم يقينه بالشبه الكبير بينه وبين ابنه عندما رأى صورته التي تركتها "حبيبة" قصداً، ولكنّه لحظتها تعمدّ عدم المبالاة وفور معرفة ماذا حصل هرع لتخريب الارتباط، فهذا النوع من الهيمنة (الإكراه) جعل الضحية "حبيبة" تموت في اليوم مئة مرّة، فهي لوّنت لحظاتها من الحياة وداوت جروحها النفسية برابح ولكن بعودة "رحيم" لحياتها دمّر لها كل شيء بنته.

ويبدو أنّ هذه الشخصية التونسية مصابة بلعنة الحبّ فحتّى علاقتها ب"مختار" الذي بعدما تقرّر ارتباطهما بين العائلة فور عودتها إلى تونس تركها بعذر أنّ حبيبته التي دامت علاقتها ثلاث سنوات، طلبت الطلاق من زوجها ليعود ما كان بينهما في السابق، فهي لا تملك حلاً آخر سوى الانسحاب، كعادتها واعتبرت كلّ ما يحدث معها بسبب علاقتها المشؤومة التي جمعتها يوماً ب "رحيم" باسم الحب والذي أصبح شبح ماضيها وحاضرها الذي كره لها حياتها وأصبح لا يكتفي بأسلوب التهديد وإنّما سعى لتنفيذه، حيث «يشغل هذا الخطاب المتخفي ليظهر عموم العلاقة بين الرّجل والمرأة في مستواها الواقعي وهو خطاب الهيمنة، فالرواية هنا مجرد تمثيل رمزي للواقع في صورته الفظة»². ولذلك يعمل هذا الخطاب على تضخيم صورة الرّجل.

ويأتي الدور على الزوجة الثانية "ربيعة" التي تمثّل بكل صفاتها صفات المرأة الجزائرية الصبورة والمكافحة لإكراهات زوجها، فهي شابة على قدر من الجمال و التحصيل العلمي. كان أول موقف تصطدم بغضبه حين واجهته بكمّ من الرسائل و الصّور التي وجدتها في درج مكتبه، وأفضى إلى تهديدها وتطبيقها الطلقة الأولى، وقد ورد الخطاب بينهما على النحو التالي: «- ما الذي تقصدينه بهذه الأوراق؟ فاجأها بنبرة وأردف موبخاً إنّها قديمة. ألم تقرّئي تواريخها؟ تلكأت. لم ترد عليه حتى كرّر سؤاله أكثر من مرّة.

قد نعيش الماضي بتواريخ معاصرة، آلمي كثيرا أن تحتفظ بمثل تلك الكلمات ونحن متزوجان، كنت أفضل لو..»³. وككل مرّة كان يهددها بتطبيقها ويكرهها في هذا الأمر حتى

¹الرواية، الصفحة نفسها.

²حسن النعمي، خطاب الإقصاء والإحلال في الرواية النسائية السعودية، ملتقى جماعة الحوار، جدّة، ك1، 1428م، ص20.

³الرواية، ص113.

دمر الطلاق حياتها، لأن أسباب انفصالها دائماً ما يتمادى إلى لفظة الطلاق ورغما عنها وافقت بالعودة إليه بعد محاولات عائلته التي اعتبرتها الزوجة المناسبة والخلوقة، كما كان أبواها يرفضان فكرة الطلاق في عائلتهم ... وبسبب خيانتها لها عدة مرات، أصبح غير قادر إلى النظر في عينيها لكي لا تكتشف ذلك.

وقد بدا وكأنه أدمن على هذا الأمر، فبعدها خان ربيعة مع سامية ووردية، ها هو يعيد نفس فعلته مع زوجته الرابعة "خوخة" التي خانها مع أعز صديقاتها التي تدعى "كلارا"، وبطبيعة الحال كل هذه العلاقات تعدت الخيانة الذهنية (المشاعر) وذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، إلى حدود الخيانة الجسدية والعلاقات الحميمة ... ونتيجة ذلك تولد إحساس الإكراه والبرود عند هذه الشخصيات. فقد «كان لا يستحسن وضع ربيعة ويظل يجرح إحساسها بملاحظاته لأجل أن يدفعها للتخلص من وزنها الزائد والممتلئ»¹. فمثل هذا العنف الرمزي أو الخطاب الجرح لمشاعر النساء، كان له تأثير قوي ساهم في فقدانهن الثقة في أنفسهن.

ب: خطاب الإقناع بالإغراء.

يعرف خطاب الإغراء على أنه نوع من أنواع الخطابات الهادفة المستخدمة لتحقيق أغراض نفعية وكسب ثقة الآخرين والتأثير عليهم، ويندرج ضمن عمليات الاتصال ويعتمد على استخدام التقنيات اللغوية ويهدف إلى التأثير في المتلقي فكرياً ونفسياً سواء بأدلة وحجج مقنعة أو باطلة مؤدية إلى غاية ما دون الحاجة إلى الإغراءات المادية والضغطات غير المرغوبة، أولى الباحثون والمفكرون العرب هذا المصطلح عناية منذ القدم، فقد اعتمدوا على عدة مصادر تمثلت بين الكتب المقدسة واحكام الفقه وكلام العرب والبلاغيين. ومن هذا المنظور جعلت النظريات المعاصرة أسلوب الإقناع من مستلزمات الحجاج، إذ يعرف بأنه «تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في انجاز متواليات

¹ الرواية، ص 347.

من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها¹. باختصار فهو أسلوب يعتمد على الأدلة والبراهين لإغراء الضحية.

من ميزات هذا «الخطاب الإقناعي ليس بالضرورة يكون رسمياً أو لفضياً، فقد يكون على شكل مواقف تستهدف الإغراء»². فالإغراء هو لعبة في علم النفس لا تعتمد على اشتغال القوة، وإنما تحتاج لعقل مدبر، كما يمكن أن يكون رومانياً في خطابه الإقناعي لإبقاء الضحية تحت هيمنته خالقين بذلك إغراء لافتاً للنظر. وهو تماماً ما لا حضناه في الرواية، فاستخدامه البطل "رحيم" لخطاب الإغواء الذي اعتمده مع عدة شخصيات، أي تغليفه للفظة الغزل بالشتيمة مع شخصية "صونيا" في قوله: «يلعن جد أمك! انموت عليك... أخلى دار بوك، هبلتيني! ...يا عزرينك»³.

هذا المقطع يحمل بين طياته عنفاً معنوياً متمثلاً في ألفاظ تدل على الممارسة الجنسية والمعاملة السيئة وغيرها هدفها إظهار قوة تأثير الرجل وإقناع المرأة وامتلاكها حتى وإن كانت بذينة نوعاً ما.

لم يشغل الرجال أنفسهم بهذا الفن العايب إلا في القرن السابع عشر واستخدموه كوسيلة رمزية متعمدة لإبهار وإقناع المرأة من خلال الألعاب النفسية والكلمات المعسولة دون اللجوء إلى القوة «لقد أضافوا أيضاً عنصراً ذكورياً جديداً للعبة: اللغة الإغوائية، لأنهم اكتشفوا ضعف النساء للكلمات الناعمة»⁴.

ففي علاقة رحيم مع "سامية" وبعد انفصاله من زوجته عاد وكأته حرّ أعزب ليتلاعب بها ثم يتركها بعدما تقررت عودته مع "ربيعة" «عاد إليها بعد طلاقه من ربيعة بفكرة أنه لا يخون أبداً، يتودّد إليها بشكل يشعرها بأنّها امرأة مختلفة ومميّزة»⁵. ولذلك عادت إليه موهمة نفسها بأبطال الأفلام والروايات الذين يعودون إلى حبيباتهم بعد زواجهم الفاشل بامرأة ليس حتى من خياراتهم، فقد تحجّبت بأنّ علاقته بربيعة هي رغبة والديه ليس إلا.

¹ يوسف ولد النبوية، أساليب الإقناع عند الأمير عبد القادر الجزائري من خلال كتابه المقرض الحاد، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج9، ع1، 2018، ص6.

² ليلية أجمود، صراع الهوامش في الرواية الجزائرية، مخبر تحليل الخطاب، الجزائر، 2023، ط1، ص27.

³ الرواية، ص307.

⁴ روبرت غرين، فن الإغواء، دار المنير للنشر والترجمة والتوزيع، سوريا، 2010، ط1، ص31.

⁵ يُنظر: الرواية، ص147.

يمكن تصنيف الرجل الذي يتلاعب بقلب المرأة على أنه عنيف كما فعل "رحيم" مع "حبيبة" فقد أجلسها على عرش اهتمامه وهمس لها بوعود تُناور تمنعها المهسهس* وتجعلها تنبطح لرغبته في أن يكونا معاً بالصورة التي تُرضيه¹. ومما لا شك فيه أنه يعرفها ويعرف نقاط ضعفها، إذ يعترف بأسلوب الإقناع والإغراء الذي اعتمده معها «ويستمتع بتطويع خجلها بجراته.. ويحسن إقناعها بحنكته بتلقّي طقوس إمتاعه. صرخت تلك اللحظات في وجهه: "الإغواء سنارة الرجل التي تورط المرأة بتعاليم الإغراء"². ما يعني أنها تقطنت بالأعبه وأنها أصبحت موضوع إغراء.

يبدأ علاقة مع فتاة أخرى تدعى "وردية"، والتي لم تظهر في حياته منذ البداية إلا أنها بؤرة ارتجاجات يلتقي بها بمحض الصدفة فيعجب بها... وبعد محاولات كثيرة من الإقناع قبلت به ولم تكمل مشوارها الدراسي وجعلها تقبل بالتعجيل بالزواج جراء وعوده المزيفة وبأنها المرأة التي اختارها، وقد أخذ معه إقناع "وردية" مدة شهرين على الأقل بيد أنه اتّبع معها سياسة المراحل ففي بداية علاقتها فاجأها أولاً بوجود زوجة في حياته ووعداها بأن يطلقها، ولكنه لم يوف بوعد لها خشية خسارتها وعدم رؤيتها مجدداً، من ثم انتقل لفضح أبوته، وما زاد عن ذلك خيانتها لها مع "صونيا" التي تحوّلت إلى ضررتها الثانية بعد بضع سنوات من زواجها... ووعود كثيرة وكثيرة، يتحقق منها شيئاً. إلا إغرائها بكلمات معسولة فقد بعث لها أبيات شعرية من قصيدة الغزل قالها عنتره العبسي في حبيبته عبلة:

ولقد نكرتك والرماح نواهل *** مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها *** لمعت كبارق ثغرك المبتسم³.

يرى البطل أنّ كل من شخصية "كلارا" و"أنجيلا" من السهل إقناعها ولم تتطلب منه وقتاً أو جهداً لكونهما أجنبيات ومتفتحات، لا تملكان تلك الشحنات السلبية ولا الطمع المادي كما يعتقد أو لربما لم يحصر علاقته بكلتيهما في الزواج. وخصوصاً "كلارا" التي ميّزها حتى عن زوجاته لأنه ومن خلال تنوع أحاديثها خرج عن الأمور الروتينية المتعلقة بالبيت والبلد

*هسهس الكلام أي أخفاه (الكلام الغير مفهوم).

¹الرواية، ص83.

²الرواية، ص367.

³الرواية، ص336.

وأخذته من خلال لوحاتها إلى عوالم مختلفة للحياة، وكما أنه استطاع إقناعها بوفائه وبائتمانه ما جعلها تسرد عليه خصوصيات وحقائق حياتها السابقة وكشفت له سبب انفصاله من زوجها والذي سنتطرق إليه في صفحات البحث.

وهذا ما يقوم به عندما تصبح المرأة غايته ويسعى للحصول عليها بكل الطرق والوسائل، فيميل لإقناعها بأهميتها في حياته مزيّنا لسانه بأشعار وكلمات معسلة وكل ما يهزّ مشاعرهما، أيضا يقوم بإغرائها ماديا بتوفير احتياجاتها أو تقديم هدايا و أشياء ذات قيمة ليقربها منه أو لكي يجعلها تتعلّق به أكثر، فهو يستهدف المرأة من نقاط ضعفها ويستغلها كما يحلو له لأنه كما قال بورديو: «يحتل الموقع المهيمن داخل الزوج couple»¹ وبالتالي تكون المرأة هي المهيمن عليه. وهو ما نراه في النقطة الموالية.

ت: أسلوب الإغراء بالماديات.

يعدّ المال ركنا من أركان الدين والدنيا، لا ننكر أنّه يتحكم في حياتنا بشكل جذري، من الجانب الاجتماعي يلعب دورا كبيرا في تغيير الأوضاع المزرية للإنسان، يساعد بالدرجة الأولى على مواجهة أعباء الحياة وحوادثها ومن الجانب النفسي هو أداة فعالة للحدّ من الحزن.

اهتمت الرواية الجزائرية المعاصرة بتحليل أسباب الصراع بين الجنسين، وكشفت أن الخطاب ليس الأسلوب الوحيد للهيمنة إنّما أكّدت على أنّ الإغراء المالي أسهل بكثير لتحقيق الرغبات «تعدّ المادة والأموال أكثر نقطة يمكن أن تخضع لها الذوات، خاصة إن لم تكن واعية بعقبات التسيير السلطوي لها»². وخصوصا في وقتنا الحالي حيث أصبحت المادة وسيلة خضوع قويّة لكسب جل الامتيازات، وصاحب السلطة هو الغني حسب ميشال فوكو «لأنّ السلطة تقوم في علاقات القوى»³. فالرجل يختزل رغبته عند المرأة في عدّة أمور كشعوره بشهوة الجسد، سلطة الأب، فحولة الأخ، فتصبح المرأة بجسدها خاضعة وتابعة له وتسهر على راحته خلال الثلاث محطات حياتها(زوجة، أم، ابنة).

¹ بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ص64.

² ينظر: ليلة اجعود، صراع الهوامش في الرواية الجزائرية المعاصرة، ص66.

³ ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، ص65.

ظهرت الهيمنة بخطابات جديدة تشير إلى أساليب قوة الرجل ووصوله إلى هدفه المقصود، مثلما تبين في الرواية من خلال الشخصية الذكورية "رحيم" الذي تبنى أسلوب الإغراء المادي فقد كان رجلا عاشقا للنساء، وعادلا بين نساءه من حيث تخصيصه لكل واحدة سكن خاص بها ولم يذكر بتاتا أنّ إحداهن اشتكت، فهو من هذا الجانب لديه القدرة على أن يعوّل أكثر من واحدة، وذلك لثرائه الفاحش باعتباره أحد أبناء أثرياء قريته "الملونة" كما يلقبون أنفسهم فمنذ طفولته إعتاد على ماركات غالية «كان يتمختر فيها بملابسه الفرنسية والإيطالية الأنيقة. ويلاحق إعجاب أجمل الفتيات بسيارة المرسيدس التي لا يوجد مثلها في المدينة أكثر من اثنين أو ثلاث، يحرث بها طرقات الثانوية بدون رخصة قيادة، كان يبدو طفلا مدلّلا يلهو بعفوية بألعاب الترف»¹. واستمر "رحيم" على هذه الطريقة في حياة اللهو علاقته بالنساء.

فقد فكر في إيقاع فتاة جامعية في شباكه اختطفت نظره من الوهلة الأولى التي رآها فيها في أحد شوارع العاصمة، في يوم شتوي صادف ذلك يوم الجمعة وعيد الحب، فقد ورد أنه تودّد إليها بطريقتين منها الطريقة المادية التي تمثلت في سعيه لإيصالها لمكان إقامتها، نظرا لندرة وسائل النقل بدت له فتاة ذات كبرياء فأعجب بها، وبدا لها شخصا طيبا ارتاحت عندما عرض عليها وثائق سيارته الفخمة، ولكنها رفضت بعدما تولى أحد رجال الشرطة هناك أمر توقيفها سيارة أجرة، فتعقّبها حتى مدخل الحيّ الجامعي للبنات "ابن عكنون" دون أن تدير ظهرها أو تنتبه لوجوده، الأمر الذي جعله يترك بصمة اهتمام وإغراء صوب فريسته حيث بعث لها بطاقتين فضي وتسرّد الرواية تفاصيل اللقاء الأول فتقول: «تحدّث إلى عون الأمن قليلا، ثمّ ضغط على يده ببعض الأوراق بقوة كافية بأن يعرف أنّها تقيم في الجناح "أف" ويتلقّى وعدا بأن تصلها الهدية، ويصله كلّما يودّ أن يصله عنها»². فقد استخدم أسلوب الإغراء المادي لتمير خطابته وتعزيز موقفه اتجاهها لتقبل "وردية" في الأخير بهذا الارتباط الذي ندمت عليه طول حياتها.

¹الرواية، ص311.

²الرواية، ص176.

وفي هذا السياق نجد حديث عن الشاعر أراغون صاحب مقولة "باقة ورد بالدين" فيقول: «فلحّب اقتصاده أيضا من تمويل واستدانة وإعارة»¹. ولذلك أصبح حب المال أهم نقاط الضعف لدى الجنسين وخصوصا الرجل حيث يتيح له التحكم في كل من حوله، كما أنّ انعدامه وفقره يشعرانه بعجزه ما يصعب عليه امتلاك المرأة. وهكذا كانت علاقته بـ"صونيا" مبنية على العنصر المادي وإلا ماذا ستفعل برجل في عقده الرابع! وهي في بداية تخطيها لسن المراهقة، تعرفا في ملهى ليلي واستحوذت على انتباهه بمظهرها المغربي، وسط أجواء الأثرياء من سلطة ونبذ غالي وشبع خارجي وهذا ما جاء في النص: «خلفت له مع عطرها خميرة انجذاب. والتصقت بتفكيرها هي رائحة الثراء التي عبقت سيّارته الفخمة، ومظهره وأفكاره التي أبهرتها شبكة الأسفار الواسعة وصور الأماكن الفخمة»². فتواطأ الظلام والمطر في الخارج فعرض عليها إيصالها هي ورفيقاتها، فوجد نفسه يوصلهنّ ويدس في يديها لفافة ورق فيها رقم هاتفه، فجمعتها سنوات حب وبعدها قدّم لها كل الإغراءات المادية حصل بالمقابل على جسدها، إذ حمله جسده خطيئة بنتين من صلبه.

وقد احتفظ رديم بـ"صونيا" لدافعين الأول إعجابه وانجذابه لجسمها المكتنز أما الثاني فكان حملها غير المتوقع منه، غير أن الحاجة كانت سببا في انجذابها، ولعلّ الامتيازات التي حضيت بها "صونيا" كفيلة لإقناعها ببقائها بجانبه بعدما أحسّ بالوحدة، كالفيلا، ملابس الماركة، المال... فتمسكت به لثرائه وساهمت في تقبلها فكرة الزواج منه على ضرة وتمسك بها هو الآخر لأغراضه الجنسية وعزم بأنها ستكون التحلية المستدامة التي تعيد لحياته مذاقها وحيويتها التي ما عاد يشعر بها مع زوجاته الأخريات، وعلى ما يبدو فإنّ علاقتهما دعارة اقتصادية لكونها قائمة على الاستغلال من كلا الطرفين، والتي من المفترض أن تكون مبنية على الحب أصبحت مبنية على العنصر المادي.

آخر علاقاته في العلن هي "خوخة" التي تعرف عليها أثناء رحلته إلى سويسرا فراح يبحث عن منافذ لتقبل بارتباطه وعندما قبلت به كان قد أعلن الحرب على فراغ الاحساس بزوجاته وخرّب علاقات لا يمكن أن تتصلح مع الوقت، وهي من بث في نفسيته متعة السفر

¹ الرواية، ص16.² الرواية، ص306.

والعيش وعرفت كيف تنسيه احساس الغربة والوحدة لدرجة أن كل اللحظات التي قضياها معا يعتبرها دعوة خير لحقت به، والأمر الذي جعله غير مهتم بما يحصل مع الأخريات فقد: «فتح خلالها كيس المال والحرية لزوجاته وتفرغ للاستمتاع بقربها»¹. حصلت الزوجات على ثروات كثيرة بعدما تفرغ هو للهو والاستمتاع والسفر، ومنه جاء الضغط المادي في الرواية واضحا لامتلاك البطل ثروة مالية ضف إلى ذلك ثروة معرفية وتجارب سابقة وعلاقات قوية مع عدّة شخصيات سياسية مهمة.

نستنتج من خلال هذا كله أنه لولا عدم توفر الظروف المادية المستقرة لما تعددت حدود علاقاته الشخصية والعاطفية، وإنّ المكانة والقوة التي يتّسم بها هي من أوهام السلطة، لأنه كان على دراية من أنّ الإغراءات المادية ستأدي به في نهاية المطاف إلى نتيجة. وما نلاحظه من هذا الجانب أنّ الطمع المادي مسّ الشخصيات الجزائرية القروية الفقيرة التي تطمع في الزواج والاستقرار مقارنة بالشخصيات المتحررة كلارا، أنجيلا التي لا تنتظر إلى الجانب المادي ولا تعير له أهمية في العلاقة.

وبالمقابل طمع "رحيم" مرّة واحدة فقط، فقد أراد المجازفة بالزواج من "كلارا" ليحصل على تأشيرة لكنّها لم تكن مهتمة حينها، لذا بقي على تواصل معها عسى ولعلّ أن تقبل وهذا ما صرح به صديقه «يعنيني الحصول على بطاقة إقامة واستثمار جزء من أموال هناك. الوضع هنا لم يعد مطمئنا. ما المانع إن جمعت بين الحبّ والمصلحة؟ أنا أطلب الحلال»². فهو سعي من أجل مصلحته حتّى وإن فرض عليه الأمر التلاعب والاحتيال بمشروع الزواج.

المبحث الثالث: الهيمنة الجنسية.

احتل خطاب الجسد في ثقافتنا العربية مكانة هامة في مجال الأدب «فالرواية وليدة الجسد وانفعالاته الراقصة اتجاه موضوعات الحياة المتناقضة، المنتشرة عبر مجالات الفرح والحزن بحيث تحمل لفظة الجسد بعدا دلاليا واسعا فتأثر على إدراكنا للأشياء»³.

¹الرواية، ص346.

²الرواية، ص371.

³ينظر: نجاة غفالي، التواطؤ الضمني بين الجسد والنص في الأسود يليق بك-أحلام مستغانمي-، الرواية النسائية في الجزائر النشأة أسئلة الكتابة، ص185.

وعلى سبيل المثال الروائية "أحلام مستغانمي" في روايتها "ذاكرة الجسد" سنة 1993 ثم "فضيلة الفاروق" في رواية "اكتشاف الشهوة" حاولت إظهار مواصفات دقيقة للجسد والكشف عن حرمة والتصريح بلفظة الشهوة بدءاً بالعنوان، فهي إذن «تمتاز بتلك العين الزجاجية والمكبرة لصورة الجسد، وبالإيغال أكثر فأكثر عن تفاصيل وأدغال تضاريس الجسد»¹. ومن هنا كانت انطلاقة البوادر الأولى لطرح المرأة قضيتها أمام الرأي العام من دون تقييد المجتمع لها.

وهكذا أصبحت الكتابة عن الجسد الأنثوي موضوعاً مركزياً في الكتابة النسوية المعاصرة، وذلك لترسيخ كينونتها ووجودها في العبودية الذكورية لما نشهده من استغلال في حقها وهذا ما أشير إليه من قبل الدكتور ابن سايح الأخضر بقوله: «إنّ الجسد في الرواية النسائية، يمثل فضاء عنكبوتياً تمتد خيوطه إلى جميع العوالم السردية الأخرى فجغرافية الجسد هي جغرافية النص، واستبطان الجسد الأنثوي استبطان للفضاء النصي، وتمثّل لخصائصه»². أي أنّ الكتابة عن الجسد وسيلة للتعبير عن جوانب سلبية وإيجابية عدة، وحتى أنه يستخدم كوسيلة لفهم النص وتفسيره.

صوّرت "فضيلة ملهاق" في روايتها "ذاكرة هجرتها الألوان" الجسد كأنه عنصر أساسي محفز لإثارة الأحداث وتشغيل الذاكرة باعتبارها المرجعية التي تثبت الكينونة والوجود في صورته الكلية، وكما بيّنت فارق النظرة إلى العلاقة الجسدية بين المرأة والرجل في زمن إشكالي (زمن العشرية السوداء) كان فيه المجتمع يعاني الخوف وعدم الاستقرار وكانت المرأة تبحث عن الحب والأمان والدفء عسى أن تجده في أحضان الرجل، الذي كان هو الآخر يبحث عن التخلص من قيود الوضع الأمني والسياسي بطبيعة الحال على طريقته التي تمثلت في رؤيتها جسراً لإرضاء غروره فهو على ما يبدو يبحث عن الصعب ولم يشعر بقيمة كل المشاعر والأحاسيس التي تكنّها إلا حين ضاعت وبدأت علاقاته بالانهيار*.

¹ حفناوي بعلي، جماليات الرواية النسوية الجزائرية تأنيث الكتابة وتأنيث بهاء المتخيل، دار اليازوري العلمية، 2015، عمان، دط، ص 88.

² ابن سايح الأخضر، بلاغة الجسد، وفعالية التجسيم الاستعاري، الرواية النسائية في الجزائر-النشأة أسئلة الكتابة-، ص 155.

* حوار مع الروائية على منصة فايسبوك بتاريخ: 2024/02/15.

عملت هذه الرواية بوصفها «رواية العشرية السوداء أو رواية المحنة حسب توصيف الدكتورة آمنة بلعلی، وهذا المسار ارتبط كله بالماضي وتمجيد البطولات...أخذت تتحو منحى تجريبيا بتبنيها طروحات جديدة منها: تقويض السلطة والحفر في آلياتها التي خلقت الهوامش»¹. أي أنّ الرواية المعاصرة لجأت للماضي الذي سادت فيه الهيمنة الذكورية لوصف الأحداث والقضايا الحساسة أُنذاك وخصوصا تلك المتعلقة بالذات والآخر... وحيث تحظر الهيمنة على الجسد الأنثوي في أمرين: الأمر الأول استغلال الجسد الأنثوي والتلاعب به لممارسة أغراض جنسية، والأمر الثاني الاعتداء عليه وتعنيفه بالقوة الجسدية. منذ آلاف السنين اقترنت القوة الوحشية للذكور بأجسامهم ولياقتهم البدنية ورغم ذلك فإنهم يملكون نقطة ضعف، حسب قول روبرت غرين: «بالطبع الرجال لديهم ضعف وحيد: رغبتهم التي لا تشبع للجنس. المرأة تستطيع دائما أن تلهو وتعبث بهذه الرغبة، ولكنها بمجرد ما تمنح الجنس فإنّ الرّجل يعود للسيطرة، وإذا تمتعت عن الجنس، فبإمكانه ببساطة أن يبحث في مكان آخر - أو يمارس القوة...ومع ذلك فالنساء لم يكن لديهنّ أيّ خيار سوى الخضوع لهذه الحالة»². يتضح أن هذه الهيمنة الجنسية مستخدمة كأسلوب حرب ضدّ المرأة، تكون مخيرة بتقديمه أو منعه؛ فإنّ قَدَمته تحتسب خاضعة وإنّ امتنعت عرضت حياتها للخطر، ومرتبة الخضوع تابعة للسلطة الذكورية المتوارثة عبر الأجيال والتي تقوم على مبدأ الإجحاف الذي حوّل الأنثى لمهمّشة ولوعاء للجنس. و«العرب من الشعوب الميالة إلى جانب الجمال الجسدي أكثر من أي جانب آخر. لذا ربطوا جسد المرأة بالفتنة والشهوة، والفتنة عندهم تتصل بالحسن والملاحة والجمال الشكلي وقرينه، الفتنة بالنساء هي الابتلاء بهنّ وكأنّه خضع للجمال الخلاب»³. وقد أصبح اليوم المظهر الخارجي هو الصانع لجمال المرأة العربية بعدما كان جمالها مرتبط بدينها وأخلاقها ونسبها، في حين نجد أن أهداف المرأة في علاقتها بالرجل تتمحور في الغالب حول الزواج وتكوين أسرة بعكس الرّجل الذي يسعى باحثا عن شهوته غير آبه بالعواقب لا من الناحية الدينية لا الأخلاقية، كما حصل

¹ ليلية أبعود، صراع الهوامش في الرواية الجزائرية، ط1، ص10.

² روبرت غرين، فن الإغواء، تر: منير سليمان، دار المنير للنشر والترجمة والتوزيع، سوريا، 2010، ط1، ص29.

³ بن فرحات فتيحة، زبوج سامية، أنطولوجيا الجسد الأنثوي في التراث العربي الإسلامي: قراءة تحليلية للتراث المدون المروي والشعري عدد1، مج9، الجزائر، 2023، ص4.

مع "الضاوية" التي تزوجت بالغضب لأكثر من مرة، حتى أصبحت ترى نفسها منحوسة فرض عليها الزمن أن تتال نصيبها من الجوع و الحسرة وهي لا ذنب لها في ذلك. فقد تخلّص منها جدّها كما تخلّص من أمّها دون أن يرف له جفن، فكان نصيبها رجل لا يعيرها أيّ اهتمام همّه الوحيد في الصباح لعب الدومينو و تعاطي الشّمة و السجائر في مقهى القرية، وفي الليل سدّ رغبته الجنسيّة. فمذ اللقاء الأول بينهما اتضحت طبيئته من بين الرّجال «فقد دخل عليها عريسها الأوّل بالزغاريد وانهى مهمته على عجل القى الى جموع الساهرين بمنديله المخضب بديل الفحولة فحفت النساء به ودعنا طلقات البارود بالزغاريد. فلم تحظى بعرس سبع ليال كباقي القريبات ولا بعزف "البوغيطة" ليلة الدّخول، الذي كان يستمر مع المرح والرّقص لغاية وقت الفجر، كانت الثّورة في بداية اندلاعها»¹. لم يحاول هذا الزوج تفهم الكيان المكبوت في جسد زوجته، ولم يفتح أمامها سبل الحوار والخطاب لتتعرف عليه بل وأنهى العملية في دقائق ورمى بدم عذريتها أمام مرأى الجميع، بدليل أنه رمز للفحولة والشرف ولكنّه أسلوب للتمكك وفرض السيطرة واغتتيال لكبريائها واحتقار لذاتها فقط.

والمقطع السابق من الرواية يشير إلى انتشار ثقافة الظلم للرّوجين، وانتهاك للحرمة والخصوصية المتمثّلة في بقعة الدّم الموجودة على منديل الشرف والتي تثبت للزوج والعائلة عذرية وشرف الفتاة.

وبعد مرور العرس كان يدخل الى الغرفة في وقت متأخر ويغادرها في الصباح الباكر قبل أن يستفيق الجميع وكأنه يتسلل إلى وكر للدّعارة بعد الفراغ من فعلته. لم يذكر يوماً أنه كسر هذا الروتين وحنّ لزوجته وشريكة حياته أو أنه نظر إليها نظرة مغايرة تُحسسها بأهميتها في حياته أو نظرة يكتشف فيها روحها النقية الحنونة فقد كان كلّ همه الوحيد الاستمتاع والتلذذ بجسدها.

نفس الحادثة تكررت معها في زواجها الثاني الذي كان مدبّراً دون علمها فقد «شعرت بأنها ترمي لحمها للضباع»². حالها حال المغتصبة في الشوارع هي فقط تزوجته على مسميات الأعراف والتقاليد، فشعورها هذا نابع من الألم الذي سكن نفسيتها وذاكرتها.

¹الرواية، ص29.

²الرواية، ص30.

كما تحتم أيضا زواج "سامية" من شخص اختاره لها خالها، فاستسلمت لوضعها عسى أن يوفّر لها الزّواج فرصة الاستقلالية والتحرّر من قيود العائلة وخدمة زوجة خالها. لكنّها لم تغلح! ولم يكن العرس الذي حلمت به ولا الزّوج الذي تمنّته، فقد قضا على أناملها الصغيرة وسعادتها بلبسها الفستان الأبيض وهي في سنّ لا تتعدّى السادسة عشر وهو في بداية الشّيوخوخة، وقد عاشت معه تحت تهديد أبناء هذا الشّيوخ، والذي تزوّج منها مباشرة بعد موت أمّهم.

تعرض الساردة تفاصيل ذلك العنف الجنسي في قولها: «أشار لها برأسه بأن تدخل لغرفتها، أغلق باب الطّابق العلويّ ثمّ لحق بها و كأنّ شيئا لم يكن، ثمّ ألقى بمعطفه على الكرسيّ و نظر إليها نظرة طويلة خالية من أيّ معنى أحسّت بأنّه يراجع بها حساباته في المرّة الأولى التي يراها فيها. اقترب منها دون أن ينبس ببنت شقّة، أمسك بيديها ورفعها نحوه، و لفّ أذرعته حول خصرها بغتة وضعه بين يديه...نطّ بعدها إلى شقّها العلويّ على نهديها المكورين ببداية تفتّحهما (...). انقضّ عليها ككاسر يظفر بطريدته بعد الموسم اصطياذ شحيح، لم يترك قطعة في جسدها لم يطلها بما يصلح أو لا يصلح»¹. فأسلوبه العنيف هذا، أدّى إلى شعورها بالإذلال وانحطاط كرامتها كامرأة وتمنّت لو كانت جتّة هامة أفضل من تعرّضها هذا التّعنيف.

فالإكراه الجنسي على المرأة يُظهر الرّجل في شكل مُهيمن أو مُسيطر، وعليه نستنتج أنّ الاغتصاب والإكراه والعنف في كافة أعمال السيطرة الجنسية تسبب ألمًا شديدا جسديا كان أو عقليا بالنسبة للمرأة، لتصبح «العلاقة الجنسية هي شكل من أشكال الهيمنة التي يؤديها الرجل خلال أدواره المختلفة»².

وعليه فإنّ الرّجل يسعى إلى إشباع رغبته في النّيل من المرأة وكسر شوكتها أو عذريتها ليقوم بعدها بتدمير حاضرها ومستقبلها دون أن يشفق أو يهتم لوضعيتها، وتمثّل ذلك عند شخصية "حبيبة" التي تعرضت للعنف الجنسي من قبل "رحيم" وهو يفتض بكارتها بوحشية ليتضح أنّ الجسد بؤرة اهتمامه محاولا في كل مرة الكشف عن جسد جديد.

¹الرواية، ص58،57.

² ينظر: نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية، ص22.

وفي حادثة أخرى حاول الطبيب عبد الهادي زميلها في العمل الاعتداء عليها، ووليد لها الكف الذي حفرته في وجهه بعدما رفضت أن تقيم معه علاقة جنسية، أَلّف عنها شائعات لا يمكن التغاضي عنها ما اضطرها للاستقالة، هذه الشائعات تعدّ من أخطر أنواع العنف وخصوصاً في حدود مكان العمل والدراسة لأنها تدمر سمعة المرأة ومصداقيتها التي كسبتها بعد تعب وجهه «ويعد من أنواع العنف الأكثر شيوعاً حيث تتزايد باستمرار في أماكن العمل المختلفة، يندرج ما يسمى العنف الرمزي ضمن العنف النفسي الذي لا يتسم بالقيام بأي فعل تنفيذي بل يقتصر على الاستهتار والازدراء واستخدام وسائل يراد بها طمس شخصية الضحية وإضعاف قدرتها الجسدية أو العقلية»¹. وهو ما يولد في الضحية عدّة أحاسيس كالخوف، الخجل والوحدة وعدّة أفعال لا إرادية كالجنون والانتحار... يعرّفه إعلان القضاء الصادر عن هيئة الأمم المتحدة على أنه: «أي فعل جنسي أو محاولة لممارسة فعل جنسي أو فعل آخر موجّه ضدّ النشاط الجنسي لشخص ما باستخدام الإكراه، من جانب أي شخص بغضّ النظر عن علاقته بالضحية، في أي مكان. ويشمل العنف الجنسي الاغتصاب، الذي يعرّف بأنه إيلاج القضيب، أو أي جزء من الجسد أو أداة خارجية أخرى، في الفرج أو الشرج بالإجبار أو الإكراه، أو الشروع في الاغتصاب أو الملامسة الجنسية غير المرغوبة وأشكال أخرى غير قائمة على الملامسة»². يتضح أنه انتهاك وإكراه جنسي بحق المرأة على ممارسة جنسية لا رغبة لها فيها.

فكأى رجل تغريه المرأة، كانت "ربيعة" الزوجة التي يجد معها ضالته في الجنس ويلح عليها أن تعيد أول يوم التقاها إلى غاية زفافهما لأنه لا يمل منها كامراً وجسد، فيظل يردد في نفسه: «لم أكن أعرف أنّ ذوق أمي رفيع! وتبدو شدّة انبهاره بها استحوذاً بلغ ضعفه أمامها»³. لأنّ أمه هي من رشحتها لتكون زوجته فيذكر أنه كان دائم التسلّل إلى المنزل ليراقبها في المطبخ فتنتبه وتجعله يرى ما يريد رؤيته خصرها، ووركها الممتلئتين فيقترب منها كأفعى تلمح بئر ماء من بعيد بعد أيام من الصوم، أي أنّ ربيعة وسيلتها الوحيدة التي

¹ أمل سالم العواودة، العنف ضدّ المرأة في القطاع الصحي (دراسة ميدانية على العاملات في مستشفيات مدينة عمان)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2008، ط1، ص42.

² تقرير الجمعية العامة للأمم المتحدة، دراسة متعمّقة بشأن جميع أشكال العنف ضدّ المرأة، 2006/07/6، من موقع <https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/violence-against-women>

³ الرواية، ص111.

أبقتها بجانب زوجها مدة خمس سنوات على غرار محبة أهله لها، كان حبه وإعجابه بجسدها.

إنّ الجسد الذي تحركت في سياق الساردة هو جسد بشقيه الذكري والأنثوي، ذكري من خلال فرض الآخر لسلطة جسده حيث الشهوة والرغبة والسياق الثاني لوقوفها على مكانم الأنوثة الموجودة في الجسد ظاهريا ونفسيا ووصفها حالة الذات الأنثوية وما تعانیه بداية من آلام محطة الدورة والبلوغ إلى الإحساس بالعذرية والولادة والمخاض ، وعلميا عمليا حمل "ربيعة" الغير متوقع راجع إلى أسلوب تعامل زوجها العنيف معها وعلى إرغامها على ممارسة الجنس استنادا لما جاء في أبحاث لطبّ «العنف الجسدي مثل الضرب أو العنف اللفظي أو الجنسي يؤثر على الصّحة الإنجابية والجنسية للمرأة، حيث يمكن أن يؤدي العنف إلى حمل غير مرغوب فيه أو الإصابة بفيروس نقص المناعة "الإيدز" بسبب الإكراه على ممارسة الجنس»¹.

الفعل الجنسي إذن من منظور الرّجل هي آلية من آليات الهيمنة والتّمك «أما المرأة بدورها تدرك أنها متعة للرجل يحصل عليها متى أراد، وتدرك كذلك أن المنظومة الذكورية هي التي تسيّر وتكسبه شرعية تعالیه وعبئته بها»². فأی عنف ممارس ضدّ المرأة يكون بحكم القوّة والسلطة اللذين يميّزان علاقة الرجل داخل أسرته.

يولي هذا الجسد الأنثوي أهمية كبيرة من ناحية الشكل، فقد أسدت الساردة لجميع الذوات قدرها من الجمال وفي وصف لجسد صونيا أعار لها البطل انتباهه منذ لقائهما بعد يومين من معرفتهما لبعض في الملهى «بادرته بابتسامة مثقلة بأحمر شفاه بيدي شفيتها في أتم الاستعداد لنفخ النّار... ضمّختها رائحة عطرها وهي تقابله تحت أشعة الشمس الكاشفة، وتتجسّد أمامه كدمية (باربي) ب خصرها الأهيف وشعرها الطويل... بمجرد أن جلست نزعت معطفها الجلدي ووضعت على الكرسي. تعمّدت أن تمّد في جذعها بشكل يبيديه طويلا وممتدا، رغم قصره ويقرب صدرها المكتنز من ذقنها. اقتحم نظره هيجان تقاطيع جسدها المنفلتة من قبضة فستان أسود بلا أكمام، مفتوح في أعلى الصّدر بشكل يكاد يكشف

¹ سعديّة نايت صغير وحريرية عتيقة، الإنعكسات الصّحية للعنف الممارس ضدّ النساء: دراسة تحليلية، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج6، ع24، 2022 ص6.

² أوريدة عبود، من التهميش إلى الهيمنة مقارنة في رواية اكتشاف الشهوة لفضيلة الفاروق، ص209.

عورتها حين تجلس»¹. تكررت لقاءتهما كثيرا بعد هذا اللقاء وتعدّدت حدودها لوصولها إلى ما يصعب عليه إيصالها عادة إلى مرحلة الحمل...

علاقه محرمة جديدة مع "أنجيلا" الفتاة الإيطالية التي تعرّف عليها أثناء رحلته، والمولعة بالبحث على الزواج. توطّدت علاقتهما من علاقة صداقة إلى علاقة الاختلاء لإعجابه بثقافتها الواسعة وجمالها الناعم والغامض، كانت بالنسبة لقلبه كقطعة قטיפه وأكثر ما أحب فيها على غرار جسمها متعة حديثهما وجرأتها «لم تكن اللحظات الحميمية التي يمضيها معها تغمره بذات متعة حديثه إليها. وكأن شيء من انجذابه نحوها إنظر مع منحوتات جسديهما على الرمال!... يسطو على استمتاعه بلحظات الاختلاء بها. ويبث فيه الشعور بأنه يخترق النظام ويقترّب ممّا كتب عليه "ممنوع اللمس، للعرض فقط" أو ربما كان بريق أنوثتها الطاعي المفرز هو السبب في انتكاس رغبته فيها»².

أمّا عن جرّأته مع "كلارا" فبلغت ذروتها فقد جذبته إليه ورطته بالخمير وأصبح من طقوس متعتهم... أقامت علاقة معه بمجيئها إلى الجزائر لتسوية عقّار يعود لأبيها فاستأجرت شقة ضلّا يلتقيان فيها إلى غاية عودتها... وفي حين تماديا من خلال أحاديثهما في موضوع الجنس اعترفت له بأنّ طليقها كان يؤذيها ويضغط عليها أثناء ممارستهما للعلاقة الجنسية «هذا ما جنيته من زواجي السابق كان يُلح ويضغط عليّ لأشركه الشرب في أوقاتنا الحميمية بصقت الجرعة قبل أن تجتاز لوزيتها وأضاف بمرارة: "يبدو أنّه كان يشرب ليحتملني! وعندما اكتشفت حقيقته وجدنتي أشرب لأتحمل نفسي!«³. فالإدمان على الكحول من أخطر أنواع الإدمان على نفسية الإنسان وجسده، توهم الرجل برجولته وبلوغ نشوته حسب الكثير من الدّراسات، ومثل هذه التصرفات ولّدت في الشخصية عنف ضدّ الذات والذي تمثّل في مبالغتها الإدمان على الكحول والتدخين.

في وقت وجد أنّ كل علاقاته بزوجاته قد بردت وتقلّبت هيأ نفسه لرحلة لربّما تهدّن دواخله. خلالها إنقي ب "خوخة" منذ الوهلة الأولى اغتم فرصة اصطيادها، من شكلها جزم أنّها سويسرية أو دنماركية ولكن اتضحت أنّها جزائرية، أعجب بشعرها الكستنائي و بشكل

¹الرواية، ص308.

²الرواية، ص92.

³الرواية، ص366.

جسدها وأفرد مشيتها الخاصة والجذابة على غيرها كما أنه «إزداد إعجابه بكل ما فيها: جمالها!.. تحكّمها في انفعالاتها!.. حديثها المركّب تركيباً يعلي ثقافة واسعة!.. طريقته في احتواء انفعالاتها!..»¹.

وعلى هذا الأساس تتضح الهيمنة الجنسية من خلال المقاطع المقدّمة في رواية "ذاكرة هجرتها الألوان" التي أرادت صاحبته التعبير عن الظلم والقهر والألم الجسدي والنفسي الذي تعرضت له المرأة مركزة بالدرجة الأولى على الهيمنة الذكورية، ثم مجيئ هيمنة المؤسسة بعدها.

المبحث الرابع: الهيمنة بالقوة الجسدية.

الهيمنة بالقوة الجسدية يراد بها استخدام القوّة بشكل متعمّد في حقّ أي شخص بهدف السيطرة عليه، حيث يمكن بالاستخدام أداة حادة كالسكين، العصا أو دونه مثل الضرب، الصفع، الدّفع، الركل وغير ذلك.

والهيمنة بالقوة أسلوب الجاهلية وإصرار على التخلف، فقد قرّر وأكدّ سبحانه وتعالى على حسن معاملة المرأة في محكم كتابه، فيقول: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا».² فتكون هذه المعاملة بطيب القول وحسن الفعل والتعايش بينهما.

في الرواية تعرضت العديد من الشخصيات الأنثوية لهذا النوع من التعنيف والتي أكّدت الساردة بنفسها أنهمّ يعيشن صراعات داخلية وحالات خوف وقلق التي من شأنها أن تشكل عائقاً أمام شعورهنّ بإنسانيتهنّ ونقص من حقوقهنّ.

تعرض الروائية تفاصيل حياة "سامية" سكرتيرة "رحيم" والعنف الجسدي الذي بات غارزا في قلبها، بدأ الأمر حينما انقطعت أخبار والدها المغترب في فرنسا، وانتقلت هي وأمها للعيش في بيت جدها من أمها، وهناك بدأ خالها يترصد كل تحركاتها مما جعلها تضمه إلى قائمة الأشخاص الذين تسببوا في تعاستها. تقول الساردة في وصف معاملته: «عندما اكتشف أمر مصاحبته لابن الجيران بالرسالة عاطفيّة وضعها ابنه بين يديه، انقضّ عليها

¹ الرواية، ص 345.

² سورة النساء، الآية 19.

بالضرب المبرح كثور هائج وأنقش على جسمها آثار حزامه الجلدي بعد ما قذفها بعبارات مهينة تمس شرفها. ومنعها من مواصلة الدراسة رغم تفوقها¹. يظهر من خلال هذا المقطع أنها كانت متمردة في صغرها، ولذا كان خالها يمارس عليها الهيمنة بجسده وفي نظره يرسم حدودها ليس إلا، وتضيف: «كان عدم التقيد بصراط خالها يعرضها للضرب بحزامه الجلدي الكبير»². بقيت الساردة تفصح لنا بين صفحات الرواية أبرز حالات العنف الذي نخر جسد "سامية" من طرف خالها حيث بالغت في وصف حقدها عليه وتحمله مسؤولية ألامها الجسدية.

دار بين "ربيعة" وزوجها جدال وطردها من البيت لرغبتها في المزيد من ثمار الحياة الزوجية فبينما همت تجمع أعراضها وترفع صوتها المليء بالقهر وتخبر ابنها البكر أنها سيغادران وأن لا مكان لهما في بيت جده بعد الآن ازداد غضبا «وراح يدفعها إلى الخارج بإصرار من يطرد قطا متشردا تسلل إلى مائدته»³. هنا استعرض قوته الجسدية عليها فأشعرها الموقف بإذلال، حتى وأنها رفضت أن تعود إليه بعد إنجابها طفلها إلا بإصرار من عائلتها وطلب رجوعها لتدخل الرغبة والشوق في نفسيته.

يكرّر مركزيته كزوج "وردية" ويسلبها جسديا وحصاده من هذه العلاقة طفلة ووثيقة خلع. ففي ظرف مماثل قام "رحيم" بصفع زوجته "وردية" إثر الشجار الذي دار بينهما، فجاء هذا العنف الجسدي في لحظة غضب، اللحظة التي يصعب فيها على الرجال خاصة التحكم في تصرفاتهم وألفاظهم رغم الحب الكبير الذي يكنه النطل لزوجته إلا أنه في وقت الغضب يتجرد من كل المشاعر الإنسانية الحسنة. وعنف آخر جسدي ضدها بسبب غيرته عندما كانت برفقة ابن عمته في المعهد وهما يتبادلان أطراف الحديث «اندفع نحوها كثور هائج اجنتها من مجلسها أمام الجميع»⁴. هذه الهيمنة أو السلطة القامعة من الزوج أتت كرد فعل جسدي لإحساسه بشيء مسّ كرامته.

¹ يُنظر، الرواية، ص55.

² الرواية، ص53.

³ الرواية، ص145.

⁴ الرواية، ص340.

سُمّت "وردية" بيت الزوجية وكرهت علاقتها بزوجها الذي لا يجمع بينهما إلا السرير بعد عدة ليالٍ من الانتظار، ومن ثم بدأت الحالة بينهما تزداد سوءاً فأصبحت تمنع عنه كل ارتباطاتهما ما جعله يحس أنه يقترف ذنب معاشرته جثة لا زوجة.

يمثل الرجل رمز الصلابة والقوة وهذه الصفات لا يمكن أن تعصمه عن نقاط ضعف كثيرة، على سبيل المثال افتقاره لعنصر الثقة تجاه المرأة وهذا ما جسده علاقة "رحيم" بـ"صونيا" القائمة على هذا الأمر بالتحديد (انعدام الثقة بين الزوجين)، وبالأخصّ خوفه من طيشها وصغر سنّها وبالعودة إلى مكان لقائهما دليل كاف لتذكيرها بأنّ له فضلاً كبيراً في سترها وجعلها أمّاً وزوجة يقول:

«- أنا هي عجلة الإنقاذ التي غيرت قدرك! خلقت لتكوني عاهرة... وأنا من جعلتك أمّاً وزوجة!»¹.

ففي إحدى الليالي الباردة خرج من عند "وردية" بعدما تجاهلته ورفضت السهر معه، وقادته رجلاه إلى بيت "صونيا" السبب الذي دفعه للزواج بها احتياطاً للظروف، وحمد لله بعد ذلك لجعله مسالك أخرى في الأرض... عند وصوله فتح الباب بنفسه وتفاجأ بعدم وجودها، اتّصل بها ووجد هاتفها مقفلاً انتابه الشك حول عبثها بشرفه أو ربما قد حصل لها مكروه لأنه انشغل عنها الفترة الماضية وظلّ يكتفي بالاتصال هاتفياً، بعد عدّة ساعات من الانتظار أشرفت، وعلى غير عادتها بدت له ثملة وقالت بأنها كانت في عرس إحدى صديقاتها وبدأت تتهرّب وتحتج بالتعب وتلومه على تفريطه فيما يهتم بباقي زوجاته، لكنّه ببساطة لم يصدقها ووضعها في درجة الخائنة، الأمر الذي أدى به إلى رفع يده عليها وتهديدها بالقتل في لحظة غضب ليجعلها تعترف بالحقيقة، فخافت أن يقتلها فعلاً إذ بها «اندفعت مسرعة نحو غرفتها تتنفس الصعداء لتتجاوز موجة، غضبه لم تكذب تخطو بضع خطوات حتى ارتطم خدها بالأرض ثم ترتفع بحركة واحدة وتتنفس بصعوبة تحت ضغط ذراعه وتحت وطأة الخوف من السكين الذي يهددها، لكنّها استطاعت الإفلات من قبضته وراحت تصرخ بقوة حتى يسمع جيرانها، ولكن دون جدوى لم يجرأ أحداً على التدخل.

¹ الرواية، ص 340

هذا الدور المركزي للرجل في المجتمع العربي هيأ له مجال واسع للهيمنة بقوته على جسد المرأة على المرأة والتلاعب بمشاعرها كما يخلو له بدافع القوة الجسدية التي يمتلكها والتي يستضعف بها المرأة الضعيفة جسدياً.

من خلال ما سبق يمكننا القول أنّ الرواية الجزائرية والرواية المدروسة جسدت بعض مظاهر العنف الممارس على نفسية المرأة أو جسدها، فقد ظهر الرجل في الرواية كشخصية مهيمنة بصورتين مختلفتين تارة يكون حنوناً هادئاً لا يكشف عن نواياه بشكل مباشر يلجأ إلى الكلام الحلو والخداع بالوعود والأموال وغيرها من الأساليب الإغرائية للتأثير في المرأة ليصل إلى مبتغاه منها غير مكترث لمشاعرها ورقتها، وتارة أخرى يتقمص صورة المتوحش العنيف الذي يلجأ للاعتداء الجسدي بنوعيه لإسكات المرأة واخضاعها لأوامره لفظاً وفعلاً وهو ما تجسد من خلال النقاط التي شرحنا فيها مظاهر هذه الهيمنة في الرواية.



الخاتمة

- توصلنا في ختام هذا البحث حول أساليب الهيمنة في رواية "ذاكرة هجرتها الألوان" للكاتبة الجزائرية "فضيلة ملهاق"، إلى مجموعة من النتائج هي كالاتي:
- تمثلت أساليب الهيمنة في الفصل الأول في المجتمع الذكوري بالدرجة الأولى الذي لا يعترف بالعدالة القانونية والإلاهية، التي رغم شرعنتها لا يمكنها الوقوف في وجه عنف الأعراف والتقاليد المجتمعية.
 - الهيمنة الرمزية هي إحدى أهم الآليات الخطابية الغير مباشرة التي استخدمها الآخر لفرض مكانته والسيطرة على المرأة.
 - للمرأة حضور قوي في الرواية النسوية العربية عامة، والجزائرية خاصة. فالنظرة التي قدّمتها "فضيلة ملهاق" عن المرأة نظرة احتقار ودونية لما تعيشه الأغلبية منهن في كفن هيمنة المجتمع الأبوي/البطريكي وسجن الأعراف والتقاليد.
 - من خلال الفصل الثاني نستنتج تنوع أساليب خطابات الهيمنة التي ينتهجها الرجل ضدّ المرأة ممّا يجعلها خاضعة له، كخطاب التهديد والإكراه، الإغراء، الإغواء إضافة إلى الهيمنة بالجسد بنوعها الجنسية والجسدية.
 - تيمة الجسد والجنس في الرواية لم يظهر بغرض إباحي كما نجده في النصوص النسائية الروائية عادة، وإنما جاء بغرض استدعته وتحتّم عليه الظروف في مجتمع سادت فيه الآفات الاجتماعية كالاعتصاب والخيانة الزوجية. كما أنّه جاء واضحا فالرجل استعمله كوسيلة للمتعة، والمرأة استعملته لإظهار مفاتها وكسلاح لبقاء الرجل إلى جانبها.
 - لقد اختارت الكاتبة اسم بطل روايتها "رحيم" وعيا بأنّ الرجل الذي لا يعطي المرأة حقّها ويتلاعب بمشاعرها رغم يقينه بأهميتها في حياته، ليس جديرا بميزة الرحمة. كما استعملت أسماء أنثوية من التراث الجزائري: "الضاوية"، "ربيعة"، "ورديّة"... وإضافة إلى

أسماء غربية متحرّرة : "صونيا"، "سامية" وشخصيات أجنبية: "كلارا"، "أنجيلا"... يصعب الجزم بأنّ كل هذه الشخصيات ثانوية لأنّ وجودها المتكامل تشكل ذاكرة البطل.

- يتّضح من خلال هذا العمل الأدبي أنّ الصّراع القائم بين الذّكر والأنثى صراع طويل يدخل ضمن العلاقات الإنسانية المعقّدة التي جمعت بينهما أثناء فترة حرجة من تاريخ الجزائر، لذا اعتبرت الثورة الفرنسية مصدر إلهام وسند تاريخي لتسجيل الأحداث والوقائع.
- رواية "ذاكرة هجرتها الألوان" رواية ذاكرة واسترجاع بامتياز، حيث كسرت رتابة الزّمن الذي يربط الماضي بالحاضر لغرض تشويق القارئ بإعطائه نتائج لبعض الأحداث الماضية.

- هيمنة الضمير الغائب في الرواية يدل دلالة واضحة على أنّ الكاتبة هي المتحكمة إمّا في سرد الأحداث أو إمّا في إدخال الشخصيات، وهذا أمر طبيعي في الكتابة النسائية لأنّ هدف المرأة ومنطلقها من الكتابة يكمن في رغبتها عن التعبير بحسب ما يناسب قضيتها.

- اعتماد النّص على مفارقات: كالموت والحياة، الزواج والطلاق، الرجل المرأة، العتمة النور، الثورة الاستقلال... وغيرها. كما تبنى أبنية مهجّنة: العامية الجزائرية، اللّغة الشعرية، أحداث ووقائع إنسانية معاشة، وأخرى تاريخية وسياسية بتواريخ مضبوطة وموثّقة للفت انتباه الباحث في خضم متعة الأدب.

- إنّ الذوات في الرواية تمثّل الخضوع، الحيرة، الضّعف، القلق وإنّ الآخر يمثّل الهيمنة، الخيانة، التلاعب بالمشاعر، الإغراء بجوانبه المادية والمعنوية...
- موضوع النّص ثري فيه العديد من التفاصيل، فلا يعالج فقط موضوع الهيمنة وإنّما يكشف أيضا عن أساليب المقاومة... والهيمنة السياسية وأوضاع البلاد في فترة المحنة السوداء.

كانت هذه أهم النّقاط التي ميّزت خاتمة بحثنا. نقول إنّها ليست صياغة نهائية بقدر ما هي بداية لأبحاث أخرى والتي لا تزال تحتاج إلى إثراء ومعالجة، فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

القرآن الكريم.

فضيلة ملهاق، ذاكرة هجرتها الألوان، موفر للنشر، ط1، الجزائر، 2016.

ثانياً: المراجع باللّغة العربية

- 1- أمل سالم، د.حسن العواودة، العنف ضدّ المرأة في القطاع الصحي (دراسة ميدانية في مستشفيات مدينة عمان)، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، 2007، ط1.
- 2- الشريم عدنان، الأب في الرواية العربية المعاصرة، عالم الكتب أريد، الأردن، 2008، ط1.
- 3- حسن النعمي، خطاب الإقصاء والإحلال في الرواية النسائية السعودية، ملتقى جماعة حوار، جدّة، الكتاب الأول، 1428.
- 4- حسن المناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2008، ط1.
- 5- حنفاوي بعلی، جماليات الرّواية النسوية الجزائرية، تأنيث الكتابة وتأنيث الهاء والمخيل، دار اليازوري العلمية، عمان، 2015، ط1.
- 6- زينب الأعوج، السيمات الثقافية لتجربة الشعرية في الجزائر، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ط1.
- 7- شيماء فاضل حمودي وعلي الموس الخزعلي، تجليات العنف ضدّ المرأة في الأدبين الإسرائيلي والعربي، دراسة تحليلية مقارنة، دار مجد للنشر والتوزيع، عمان، 2019، ط1.
- 8- عبد الإله بلقزيز، نهاية الدّعاية الممكن والممتنع في أدوار المثقفين، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000، ط1.
- 9- عبد العزيز عزّت، السلطة والمجتمع، Publisher not identified، القاهرة، 1995، ط2.
- 10- ليلة أجمود، صراع الهوامش في الرّواية الجزائرية المعاصرة، مخبر تحليل الخطاب، تيزي وزو، 2023، ط1.
- 11- ميشال فوكو، المعرفة والسلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ط1.

12- نورة بعيو وآخرون، أعمال الملتقى الوطني PNR الرواية النسائية في الجزائر-النشأة وأسئلة الكتابة-، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 28-29/2013.

13- نهال مهيدات، الآخر في الرواية النسوية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، عالم الكتب الحديث، عمان، 2007، ط1.

14- هشام قبلان، آداب الزواج في الاسلام، منشورات عويدات ومنشورات البحر الأبيض المتوسط، بيروت، 1983، ط1.

15- وليدة حدادي، الإعلام وقضايا المرأة، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، 2020، دط.

ثالثا: الكتب المترجمة

1- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر: د.سليمان قعفراني، مراجعة: ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة والتوزيع، سوريا، 2011، ط1.

2- جيرالد هوتز، المرأة والرجل (أيهما الجنس الأضعف)، تر: علا عادل، المغربي للنشر والتوزيع، مصر، 2011، ط1.

3- روبرت غرين، فنّ الإغواء، تر: منير سليمان، دار المنير للنشر والترجمة والتوزيع، سوريا، 2014، ط1.

رابعا: المجالات

1- بن فرحات فتيحة وزبوج سامية، أنطولوجيا الجسد الأنثوي في التراث العربي الإسلامي، قراءة تحليلية للتراث المدون المروي والشعري، مج9، ع1، الجزائر، 2023.

2- جابر خضير، المرأة والسلطة (قراءة في الموروث النقدي)، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، ع19، جامعة البصرة- كلية الأداب، 2012.

3- خديجة تباي، سوسيولوجيا الجسد الأنثوي عند بيير بورديو -الجسد والرياضة والهابتوس-، سلسلة الأنوار 1، مج13، ع1، جامعة وهران 2، 1013.

4- سعدية نايت وحرابرية عتيقة، الانعكاسات الصحية للعنف الممارس ضدّ النساء: دراسة تحليلية، مجلة هيروودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج6، ع24، الجزائر، 2022.

5- عبد الله ابراهيم، الرواية النسائية العربية، تجليات الجسد والأنوثة، مجلة علامات، ع17، المغرب، 2002.

- 6- ميلود كينه/ بشير غانية، العنف الرمزي- دراسة نظرية في مفهومه وآلياته، مجلة الشامل للعلوم التربوية والاجتماعية، مج5، ع2، جامعة الوادي، 2022.
- 7- هاجر زيادة، رمزية العادات والتقاليد، مجلة أنتربولوجيا6، ع2، الجزائر، 2020.
- 8- يوسف ولد النبيرة، أساليب الإقناع عند الأمير عبد القادر الجزائري من خلال كتابه المقرض الحاد، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مج9، ع1، 2018.

خامسا: الرسائل الجامعية

- 1- علوش جميلة، الهيمنة الذكورية في الحكاية الشعبية قراءة سوسيوثقافية من منظور بورديو، بحث لنيل شهادة الماجستير، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، 2014.

سادسا: المقالات

- 1- أمال علاوشيش، المرأة في المخيال الذكوري (قراءة في " الهيمنة الذكورية" لببير بورديو)، جامعة الجزائر، 2، 2018 .

سابعا: المواقع الالكترونية

- 1- جميل حمداوي، العنف الرمزي عند بيبير بورديو من موقع: laghoo.com اطلع عليه يوم: 10/02/2024.
- 2- قانون الأسرة، مطبوعات الديوان الوطني للأشكال التربوية، 2005، ط4، من موقع: <https://alyssir.com>
- 3- موقع يتابع الأخبار حول العالم، الحب- تعدد الزوجات: <https://arabi21.com> يوم: 15/02/2024، 13:39.
- 4- المادة 58 من قانون الأسرة ، من موقع: <https://elmouhami.com> يوم: 2024/05/07
- 5- تقرير الجمعية العامة للأمم المتحدة، دراسة متعمقة بشأن جميع أشكال العنف ضد المرأة، 06/07/2006. من موقع: <https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/violence-against-women>

الفهرس

الفهرس

الشكر والتقدير

إهداء

مقدمة.....ص1.

الفصل الأول: مركزية المؤسسة الاجتماعية و اكرهااتها

تمهيد.....ص6.

المبحث الأول: المرأة المجتمع علاقة اخضاع.....ص7.

المبحث الثاني: سطوة الأعراف والتقاليد.....ص12.

المبحث الثالث: سلطة المؤسسة الدينية.....ص18.

المبحث الرابع: تواطؤ مؤسسة العدالة.....ص21.

الفصل الثاني: مركزية الرجل وآليات الهيمنة

تمهيد.....ص26.

المبحث الأول: الهيمنة الرمزية.....ص27.

المبحث الثاني: الهيمنة بالخطاب.....ص27-55.

الهيمنة بخطاب التهديد والاكراه.....ص27.

الهيمنة بخطاب الاقناع بالإغراء.....ص41.

أسلوب الاغراء بالماديات.....ص44.

المبحث الثالث: الهيمنة الجنسية.....ص47.

المبحث الرابع: الهيمنة بالقوة الجسدية.....ص55.

الخاتمة.....ص59.

قائمة المصادر والمراجع.....ص54.

الفهرس.....ص67.

الملخص.

الملخص و الكلمات المفتاحية:

الملخص:

تناولنا في هذا البحث أساليب الهيمنة الذكورية في رواية "ذاكرة هجرتها الألوان" لفضيلة ملهاق، وقد استقرأنا منها مجموع النماذج النسوية المتمثلة في شخصيات الرواية المتنوعة التي جعلتها ضحية تصرفات وسلوكات رجل لا يرحم، فوصفنا معاناة هؤلاء النسوة تحت وطأة المجتمع الذكوري بعباداته وتقاليده، وقوانينه الجائرة، كما تطرقت إلى آليات الهيمنة التي مارسها الرجل في إخضاع النساء.

ولقد عمدنا إلى دراستها بمنظور ثقافي معتمدين على أهم المراجع في هذا المجال، فقدمنا بالوصف والتحليل مظاهر الهيمنة المؤسساتية وكذا الذكورية الرمزية بتنوع أساليبها المادية والمعنوية.

الكلمات المفتاحية: الهيمنة، القوة، المؤسسة، الذكورة، المرأة، الخطاب، الجسد. القوة...

Résumé :

Dans cette étude, nous avons examiné les méthodes de domination masculine dans le roman "La mémoire de ses couleurs" de Melhag fadila. Nous avons analysé les différentes représentations féminines dans les personnages variés du roman, qui sont devenues victimes des actions impitoyables et du comportement masculin. Nous avons décrit les souffrances de ces femmes sous l'emprise de la société patriarcale, de ses coutumes, de ses traditions, et de ses lois injustes, ainsi que les mécanismes de domination exercés par l'homme pour soumettre les femmes. Nous avons abordé cette étude d'un point de vue culturel en nous appuyant sur les principales références dans ce domaine, en décrivant et analysant les aspects de la domination institutionnelle et symbolique, avec leur diversité de méthodes matérielles et morales.

Mots-clés : domination, pouvoir, institution, masculinité, femme, discours, corps, force...